قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

راغبٌ أنت عن آلهتي: رغِب فيه وإليه: أراده بالحرص عليه وأحبَّه. ورغِب عنه: أعرضَ عنه و لم يُرِدْه (الأقرب).

لأَرْجُمَنّك: رجَمه: رماه بالحجارة؛ قتَله؛ قذَفه؛ لعَنه؛ شتَمه؛ هجَره؛ طرَده (الأقرب).

مَليًّا: المليُّ هو "الطويل من الزمان"، ولكن هذا لا يعني قرنًا أو قرنين من الزمان، إذ يقال "مرَّ مليٌّ من الليل" أي "قطعةٌ منه لم تُحَدّ" (انظر المنجد).

التفسير: لقد تبين من قول والد إبراهيم عليه السلام هذا أن المرء إذا كان مؤمنًا بما يخالف الحقيقة بناء على ما سمعه من الآباء، ثم خالفه أحد ثارت ثائرته وأبدى الغيرة بشكل مذهل. أما إذا كان مؤمنًا بشيء أو منكرًا له على أساس البرهان والمنطق لكان غضبه وغيرته خاضعًا للدليل والعقل، ولكن إذا لم يكن غضبه مبنيًّا على أساس الدليل والعقل لم يكن سلوكه أيضًا متسمًا بالمنطق والتعقل. خذوا مثلاً نبينا محمدًا ﷺ، فقد جاءه المعارضون وقالوا لـــه إننا نرفض ما تقول. كان أبو جهل من أقاربه ﷺ، ولكنه عارضه بشدة وصار أكبر عدو له. كما كان بين أصدقائه ﷺ أيضًا من لم يصدقه. فمثلاً كان حكيم بن حزام صديقًا حميمًا للنبي ﷺ، ولكنه ظل على شركه، و لم يؤمن به إلا بعد فترة طويلة. كان حكيم يحب النبي ﷺ حبًّا جمًّا. وذات مرة سافر إلى الشام* للتجارة، فرأى في السوق عباءة جميلة غالية، فقال في نفسه، رغم كفره بالنبي ﷺ، إن هذه العباءة لا تليق إلا بمحمد (ﷺ). وكان النبي ﷺ إذّاك قد هاجر من مكة إلى المدينة. فرجع حكيم إلى مكة من الشام، ثم سافر

* ورد في المصدر المشار إليه أنه شهد الموسم واشترى الحلة من هناك *(المترجم)*

من مكة إلى المدينة ليقدّم العباءة هدية للنبي ﷺ. فجاءه وقدّمها لـــه قائلاً: لقد أعجبتني هذه العباءة جدًّا حتى قلت في نفسي إنها لا تليق إلا بك. فقال النبي ﷺ: كم ثمنه؟ قال: أي ثمن؟ إنما هي هدية صديق لصديق. فقال النبي ﷺ: إنني أقدّر صداقتك كل التقدير، ولكني قد أخذت على نفسي عهدًا أني لن أقبل هدية من مشرك أبدًا. فإما أن تأخذها أو تأخذ ثمنها؟ فحزن حكيم حزنًا شديدًا، وقال: لقد اشتريتها لك من أرض بعيدة لأُهديها لك، وأنت لا تقبلها مني، وأنا لا أريد أن يلبسها غيرك. حسنًا، إني آخذ ثمنها ما دمتَ تصرّ على ذلك. فدفع له النبي ﷺ الثمن وأخذ منه العباءة. (مسند أحمد، مسند المكيين رقم الحديث ١٤٧٨٤)

فترى أن النبي ﷺ كان لـــه أيضًا أعداء، بل قد بلغ ببعضهم البغض كل مبلغ. يقول الصحابي عمرو بن العاص إنه كان يكره النبي ﷺ في أيام كفره كراهة شديدة منعته حتى النظر إلى وجهه ﷺ (مسلم: كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله). وبالرغم من هذا البغض الشديد من قبل الكفار لما رُشق النبيّ ﷺ بالأحجار من قبل أهل الطائف لم يغضب و لم يقل بسبب غضبه: لأرجمنّكم أنا أيضًا، بل لما جاءه ﷺ ملاك وقال لـــه لقد بعثني الله إليك لأعذّب هؤلاء القوم إن شئتَ. فلو شئتَ أطبقتُ عليهم هذا الجبل الذي أمامنا، ودمرّتُهم بزلزال تدميرًا. فقال ﷺ: كلا، فإنْ أهلكتَهم فمن يؤمن بي (البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين). ثم دعا ﷺ ربَّه وقال: اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون. فاصفَحْ عنهم، واغفِرْ لهم خطيئتهم.

فبما أن النبي ﷺ كان يملك البرهان والدليل على صحة عقيدته، لذلك إذا غضب على أعدائه غضب بناء على دليل وبرهان، وإذا عفا عنهم فأيضًا على أساس من البرهان والمنطق. وبالمثل كان إبراهيم عليه السلام يملك البرهان على صحة معتقده، فإذا غضب على شيء غضب بناء على البرهان والدليل. ولكن أباه لم يملك أي برهان أو منطق على عقيدته، فكان غضبه أيضًا بلا دليل. إذ لم يقل له إبراهيم عليه السلام إلا إنها، يا أبي، أمور سيئة لا خير فيها ولا جدوى، فلم تصدّق ما لا دليل على صحته؟ عليك أن تصدّق أمرًا من الأمور بعد فحصه ونقده جيدًا. فإنه

من الشرك أن يقبل الإنسان ما يقوله صاحبه بدون أن يفحصه وينقده. وكان غاية ما يُتوقع من أبيه هو أن يقول لـــه: كيف تعظني وأنت ابن أمس! ولكنه استشاط غضبًا وأخذ يسبّ إبراهيمَ عليه السلام ويشتمه، ويدعو عليه بالويل والثبور، ويهدده بالقتل والرجم والمقاطعة والطرد من البيت. بيد أنه كان أفضل من مشايخ اليوم، لأنه رغم غيظه الشديد فكّر أنه ابنه، فأمره بأن يغيب عن أنظاره لبعض الوقت حتى لا يصيبه بأذى. أما المشايخ عندنا فإنهم وأتباعهم قد فتّشوا عن الأحمديين وقتلوهم في الفتنة التي اندلعت ضدنا في ١٩٥٣، حتى قالوا من فورة غيظهم لأتباعهم: اختطفوا نساء الأحمديين أيضًا ولا ذنب عليكم! أما أبو إبراهيم فكان مشركًا حتى نهاه الله عن الدعاء لـــه، ولكن هذا المشرك المستشيط غضبًا يقول لإبراهيم: أنا غضبان الآن، دَعْني وَحْدي لبعض الوقت حتى لا أؤذيك، وأعودَ إلى صوابي. علمًا أن قوله "واهجُرْني مليًّا" لا يعني أن يهجره لسنين طويلة، بل المراد أن يغيب عن نظره لبعض الوقت حتى تهدأ ثورة غضبه. ذلك لأن لفظ المليّ، كما ذكرنا لدى شرح الكلمات، يعني زمنًا طويلاً وقطعة من الليل أيضًا، حيث يقال "مرَّ مليٌّ من الليل"، وهذا يعني أنه إذا كان الليل اثنتي عشرة ساعة مثلاً ومضتْ منه ستٌّ أو سبع ساعات مثلاً فقد مرَّ مليٌّ منه. فكان أبوه يقصد أن يغيب عن أنظاره لبعض الوقت حتى يزول غضبه.

قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٨﴾

حَفِيًّا: الحفيُّ: العالمُ يتعلم الشيءَ باستقصاء؛ المبالغُ في الإكرام والبرِّ، والمُظهِرُ السرورَ والفرَحَ، والمُكثِرُ السؤالَ عن حال الرجل (الأقرب).

التفسير: لما رأى إبراهيم عليه السلام غيظ أبيه قال لـــه إنك تثور غضبًا عليّ لأني لا أؤمن بآلهتك الباطلة، أما أنا بالرغم أنك لا تؤمن بربي الذي هو الإله الحق فإني لا أقول إلا أن يرحمك الله. إنك تريد رشقي وقتلي وقذفي بين القوم، وتود أن تسبني وتلعنني وتقاطعني وتطردني من البيت، لأني لا أؤمن بآلهتك الباطلة، أما أنا فأدعو

الله تعالى أن يشملك برحمته الواسعة رغم أنك تكفر بربي الذي هو الإله الحق. لا شك أنك على الخطأ، ولكن ربي قادر على أن يغفر لك زلّتك، لذلك سأتوسل إليه ﷻ بالمغفرة لك.

ثم قال ﴿إنه كان بي حفيًّا﴾.. أي أن ربي يغمرني بالحفاوة والإكرام، ويفرح على نجاحي فرحًا عظيمًا، ويعتني بي جدًّا، ويحزن لحزني بشدة. وعندما أنظر إلى ربي المحسن ويمتلئ قلبي حبًّا لـــه، أقول في نفسي: هناك نموذج مصغَّر لهذا الحب والحنان في أبي وأمي أيضًا؛ فمن واجبي أن أحبهما وأعاملهما بالبر والإكرام. وكأن إبراهيم عليه السلام يقول: ليس مصدر حبي لله تعالى أن والديّ يحباني ويحسنان إليّ، بل الحق أني حين أشاهد أن ربي يخصني بهذا الحب الجم ويتولى حاجاتي بهذا الشكل المدهش، أفكر أن هناك نموذجًا لهذا الحب والحنان في والديّ أيضًا، فمن مقتضى حبي لله تعالى أن أحبهما أيضًا.

فما أرفعَ المكانةَ التي تبوأها إبراهيم عليه السلام في الورع والتقوى. فمن الناس من يعمل الصالحات بالنظر إلى من هو دونَ، ومنهم من يعملها نظرًا إلى من هو أعلى؛ وكان إبراهيم من الفئة الأخيرة، حيث يقول إنني لا أحب الله تعالى نتيجة حبي لوالديّ، بل إن الألطاف الإلهية هي التي تحفّزني على أن أحبّ والديّ أيضًا. فإني حين أشاهد الحب واللطف والإكرام الذي يغمرني به محسني وربي أقول في نفسي هناك نموذج لهذه الرحمة الإلهية في والديّ أيضًا، فمن واجبي أن أحبهما وأحسن إليهما. وهذا ما يدفعني لإكرامك وإجلالك يا أبي. وإني أدعو ربي أن يغفر لك خطيئتك، ويرحمك.

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

التفسير: فلما قال لـــه أبوه اترُكْني وشأني، قال: حسنًا، فإني أنا الآخر لا أستطيع العيش معكم. تريدون أن تعبدوا الأصنام، وأنا أريد أن أعبد ربي. تسخطون على عبادة رب واحد، وأنا لا أرضى بعبادة الأصنام. فها أنا أعتزلكم.

علمًا أن قوله ﴿أعتزلكم وما تَدْعون من دون الله﴾ لا يعني أنه أعلن اعتزاله عبادة أصنامهم في ذلك اليوم، فهو لم يكن يعبدها من قبل، وإنما المعنى أنه سيتركهم في ديارهم مع أصنامهم. ﴿وأدعو ربي﴾ .. أي سأذهب إلى حيث لا يُرى إلا الله تعالى.

ثم قال ﴿عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيًّا﴾.. أي رغم أن هذه الهجرة ستكون بمثابة موتي في الظاهر، حيث أضطر لترك وطني وقومي وعشيرتي ومعارفي وأصدقائي، إلا أنني حين أدعو ربي الذي يحبني فسأنال بُغيتي؛ فيتيسر لي ثانيةً الأصدقاء والزملاء والمواسون والقوم أيضًا.

فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾

التفسير: أي أن إبراهيم عليه السلام لما ترك قومه وما يعبدون من دون الله تعالى آتاه الله إسحاق ويعقوب.

أما قول الله تعالى ﴿وكلاً جعلنا نبيًّا﴾ فاعلم أن لفظ ﴿كُلاً﴾ يأتي للاثنين أيضًا، كما ورد هنا وفي مواضع أخرى أيضًا من القرآن الكريم. والمراد من ﴿كلاً﴾ هنا إسحاق ويعقوب دون إبراهيم – عليهم السلام – إذ صار إبراهيم نبيًّا من قبل هذا الكلام.

وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

التفسير: اعلم أن الرحمة لها مفهومان في مصطلح القرآن الكريم. أولهما النعم التي نتمتع بها نتيجة الرحمة الإلهية العامة الشاملة للجميع. فمثلا لو سأل امرؤ ربه أن يرزقه ولدًا برحمته فوهبه ولدًا، أو لو دعا شخص ربه سبحانه وتعالى أن يكتب له النجاح في قضية في المحكمة، فكان النجاح حليفه، أو دعا رجل ربه بسعة الرزق، ثم زال ضيقه، فلا شك أن كل هذه الأحداث كانت نتيجة رحمة الله تعالى، ولكنها مظاهر

لرحمته العامة، التي لا تفرّق بين كافر ومؤمن ومنافق. والنوع الثاني من رحمة الله هو تلك النعم التي يخص بها بعض عباده ولا يشترك معهم فيها غيرهم.

والحديث هنا يدور حول رحمة الله الخاصة، حيث يقول الله تعالى إننا لم نعامل إبراهيم وإسحاق ويعقوب معاملة عادية، بل خولّنا لـــهم رحمتَنا نفسها. إن الشيء الذي وهبناه لهم ليس ولدًا أو مالاً أو منصبًا أو درجة، بل ﴿وَهَبْنا لـــهم من رحمتنا﴾ أي أننا وهبنا لهم الرحمة نفسها، وقلنا لهم سلُوا ما شئتم نُعْطِكم. ومثله كمثل ما حصل بحضرة الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام. فكان رضي الله عنه يقول إنني لما ذهبتُ للحج، واكتحلتْ عيني برؤية الكعبة المشرفة لأول مرة، تذكرتُ أنه قد ورد في الحديث أن الدعاء الذي يدعو به المرء ربه عز وجل عند أول نظرة إلى بيت الله الحرام مجاب ومقبول. فقلت في نفسي بماذا أدع؟ ففكرت طويلا وقلت في نفسي لو دعوت اليوم دعاء واستُجيب، فإني لا بد أن أحتاج غدًا أيضًا لشيء آخر، فماذا أفعل عندئذ؛ فعليّ أن أقوم بدعاء جامع لكل حاجاتي طوال حياتي. فدعوت ربي قائلاً: ربِّ اجعَلْ بفضلك كل دعاء أقوم به في حياتي دعاءً مجابًا. وتأسيًا بحضرة الخليفة الأول رضي الله عنه قد دعوتُ أنا الآخر هذا الدعاء نفسه عندما وقع نظري لأول مرة على الكعبة المشرفة

وهذا ما يقول الله تعالى هنا ﴿ووهبْنا لـــهم من رحمتنا﴾.. أي قلنا لهم لا نَهَب لكم نعمة واحدة، تعالوا نُعْطِكم رحمتنا نفسها. وكأنهم عثروا على زِنْبيلٍ كَـــ "زنبيلِ عُمرَ العيّار"، الذي كان كلما احتاج إلى شيء أدخل يده في زنبيله وأخرجه منه.

ثم يقول الله تعالى ﴿وجعلْنا لهم لسانَ صدقٍ عَلِيًّا﴾. اعلم أن لفظ الصدق إذا أضيف إلى شيء دل على كونه صادقًا ومَرضيًّا .. أي كاملاً ومرغوبًا فيه. فمثلا لو قلنا إنه "تمرُ صدقٍ" فالمعنى أن فيه كل المواصفات التي يجب أن توجد في التمر الجيد، أي أنه تمر طيب شهي لذيذ. أو لو قلنا مثلا إن هذا "شمّام صدقٍ" فالمراد أنه يوجد فيه على وجه التمام والكمال كل ما يوصف به الشمام الجيد من رائحة وطعم. فالمراد من قوله تعالى ﴿وجعلْنا لهم لسانَ صدقٍ عَلِيًّا﴾.. أنهم أُعطوا من الله

تعالى لسانًا متصفًا بالكمال والرضا، بمعنى أن الله تعالى وفّقهم لأن يتكلموا بكلامٍ رائع خالٍ من القسوة والجفاء، ومنـــزهٍ عن الحقد والبغضاء. ثم إنه كان كلامًا حكيمًا يُعجب سامعَه.

غير أن اللسان كما يعني لسانهم فإنه قد يعني لسان الآخرين في حقهم. وعليه فالمعنى أننا منحنا لهم جماعة أو أتباعًا كانوا يتكلمون عنهم بكلام رائع مرضي. وهذا يعني أنه كما كان كلام هؤلاء المحظوظين رائعًا عظيمًا، كذلك قد وهبهم الله تعالى أتباعًا مخلصين قد أثنوا عليهم ثناء صادقًا كاملاً مرضيًّا.

ثم إذا أضفتَ الصدق إلى شيء دل على دوامه، وعليه فالمعنى أننا وهبنا لهم كلامًا كُتب لـــه الدوام والخلود. أما إذا أُريد باللسان لسان غيرهم فالمراد أن الله تعالى سيخلق في الدنيا دائمًا أناسًا يثنون على إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ويشيدون بهم، ويحيون ذكرهم، وينشرون حكمتهم.

أما لفظ ﴿عليًّا﴾ الذي ورد هنا صفةً للسان، فله مدلولات ثلاثة: المرتفع، الشريف، والشديد (الأقرب). وعليه فيكون المراد من قوله تعالى ﴿وجعلنا لهم لسانَ صدق عليًّا﴾ كما يلي:

الأول، أنهم قد أُعطوا لسانًا رفيعًا.. أي أنهم كانوا يتكلمون بكلام عال حكيم بريء من الحقد والشحناء، يعمر القلب بنور الإيمان، ويهذب الأخلاق، ويزيد المرء طهارة وقداسة.

والثاني: أن الله تعالى كتب لهم مدحًا عظيمًا رفيعًا.. أي كان الناس يثنون عليهم ثناء عاليًا. ومثاله الدعاء الذي عُلّمتْ إياه أمةُ المصطفى ﷺ، أعني: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد * اللهم بارِكْ على محمد وعلى آل محمد كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

فكأنهم إذا أُعطوا لسانًا فكان عاليًا، وإذا كُتب لهم ثناء فكان رفيعًا أيضًا.

الثالث: أما إذا اعتبرنا لفظ "عليًّا" بمعنى الشريف، فالمعنى أنهم وُهبوا لسانًا شريفًا.. أي كان كلامهم لطيفًا بريئًا من الشر، وكانت أقوالهم خالية من البغض والشحناء. فكانوا يتكلمون دائمًا بكلام مهذب طاهر.

الرابع: أو المعنى أننا وهبنا لهم ثناء شريفًا.. أي كان الناس يشيدون بأخلاقهم الفاضلة، معترفين بكونهم من عباد الله المقدسين المقربين.

الخامس: وإذا اعتبرنا لفظ "عليًّا" بمعنى الشديد فالمراد أننا أعطيناهم لسانًا شديدًا.. أي لسانًا شجاعًا لا يخاف في بيان الحق لومة لائم. فإذا قابلهم مشرك أو من يتوقح في حق الله تعالى قالوا لـــه بصراحة وصرامة: لا علاقة لنا بك، فنحن وأنت على طرفي نقيض.

السادس: أو المعنى أنهم تلقَّوا منا ثناءً شديدًا.. أي منحنا لهم أتباعًا مدحوهم رغم الشدائد، فلو وُضع أحدهم تحت السيف لما ارتدع عن قوله: نِعْمَ الرجل إبراهيمُ، ونِعم الرجل إسحاق، ونِعم الرجل يعقوب. وبالفعل ترى أن المسلمين لا يذكرون أحدًا من هؤلاء الأنبياء بدون أن يقولوا: عليه السلام. كما أنهم يقرّون بعد كل صلاة أن الله تعالى قد صلى على إبراهيم وآله وأنزل عليه وعلى آله بركات كثيرة. وهذا يعني أن هذا النبأ إنما يتحقق في هذا العصر على يد المسلمين وحدهم.

إذًا فلقوله تعالى ﴿وجعلنا لهم لسان صدق عليًّا﴾ عشرة مفاهيم.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٢﴾

التفسير: يذكر الله تعالى الآن موسى بعد الحديث عن إسحاق ويعقوب عليهم السلام جميعًا. والحق أن إسحاق ويعقوب قد ذُكرا هنا ضمنيًّا مع إبراهيم الذي هو المقصود الحقيقي هنا كما يدل على ذلك قول الله تعالى من قبل ﴿واذكُرْ في الكتاب إبراهيم﴾. وقد ذكر الله تعالى إسحاق ويعقوب هنا للإشارة إلى أحد شِقَّي العهد الإبراهيمي الذي كان خاصًّا ببني إسحاق. أما الآن فيذكر الله تعالى السلسلة

الموسوية، لينبه إلى أن العهد الذي قطع الله تعالى مع نسل إبراهيم، والذي كان من المقدر أن يتحقق أحد شِقَّيه على يد بني إسحاق، كانت فيه إشارة إلى مقام روحاني خاص وهو المقام الموسوي. ذلك أنه كان من علامات ذلك العهد الإبراهيمي إعطاء أرض كنعان لذرية إبراهيم، كما ورد في التوراة (التثنية ١: ٥-٩)؛ وقد وقعت كنعان في قبضة بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، كما وُضع الأساس للنبوة التشريعية فيهم بواسطة موسى نفسه.

قصارى القول لكي يشرح الله تعالى لنا ماهية السلسلة المسيحية قد لفت أنظارنا أولاً إلى إبراهيم، ثم بيّن لنا أن الوعود التي قطعها الله تعالى مع إبراهيم في حق نسله قد بدأ تحققُها أولاً من خلال إسحاق وذريته، وكان لموسى صلة وثيقة بتحقق هذه الوعود نفسها. هذه هي الحكمة وراء ذكر موسى هنا بعد الحديث عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أجمعين.

يقول الله تعالى ﴿واذْكُرْ في الكتاب موسى إنه كان مخلَصًا وكان رسولاً نبيًّا﴾. وأخلص الشيء يعني جعله مختارًا خالصًا من كل الشوائب والمفاسد. واعلمْ أن الناس نوعان: مخلِص ومخلَص. والمخلِص من ينـــزه معاملاته كلها عن المداهنة بكل أنواعها، ويطهر قلبه من النفاق كليًّا. أما المخلَص فهو من يتولى الله بنفسه تطهيره من كل فكر فاسد ووهم باطل ووسوسة وشبهة. وكأن المخلَص من يختاره الله تعالى لنفسه من العباد، ويطهره من كل رجس ودرن. ومثاله ما تفعله ربة البيت بالقمح أو الخضار أو اللحم وما إلى ذلك. فبرغم أن هذه الأشياء تكون متوافرة في البيت، أو قد أُحضرتْ من السوق، ولكن ربة البيت حين أرادت استعمالها اهتمت بتجهيزها وتنظيفها بطريق خاص. فهي إذا أردت أن تصنع من القمح دقيقًا، قامت بتصفيته من كل شيء فاسد من حجر أو ورق أو قشّ. أو إذا أردت أن تعجن الدقيق لتصنع منه الخبز قامت بتنقيته بالغربال. أو إذا أردت طبخ اللحم أزالت منه ما لا يصلح للأكل من الغدد الفاسدة وغيرها. وإذا أرادت طبخ الخضار غسلتها جيدًا ليزول منها التراب أو تقوم بقشرها. فترى أن الوقت الذي يُجعَل فيه الشيء

مخلَصًا هو وقت استعماله. إن الشيء الطيب طيب في كل حال، ولكنه يطهَّر من الشوائب تمامًا وقت استهلاكه.

فقوله تعالى ﴿إنه كان مخلَصًا﴾ يعني أن موسى وُلد في عصر أراد الله تعالى فيه أن يختار واحدًا من البشر لخدمة معينة، فانتقاه الله من بين الجميع، وطهّره تطهيرًا لكي يصلح للقيام بما أراد أن يفوّض إليه من مهام على ما يرام. وهذا يوضح أن الإنسان لا يصير نبيًّا عن طريق الصدفة، بل يختار الله تعالى نفسًا من النفوس ويعدّها لذلك إعدادًا. فكلمة ﴿مخلصًا﴾ تدل على أن الله تعالى أراد تفويض خدمة معينة لموسى عليه السلام.

أما قول الله تعالى ﴿وكان رسولاً نبيًّا﴾.. فبيّن فيه الخدمة التي فوضها إلى موسى بعد أن جعله مخلصًا. كان من الممكن أن يُفوَّض إليه ما يُفوَّض إلى الصالحين أو الشهداء أو الصدّيقين، ولكن الله تعالى يخبر هنا أننا بعد أن اخترناه، شرفّناه بمقام الرسالة والنبوة.

يقول عامة المفسرين والمتكلمين عندنا أن الرسول من يأتي بكتاب، والنبي من لا يأتي بكتاب، وإنما يؤمر من عند الله تعالى بهداية الناس (فتح البيان). تصفَّحْ أي تفسير من التفاسير تجدْ فيه هذا المعنى. مع أنه لو صح هذا المفهوم للرسول فماذا يعني النبي إذًا؟ فالنبي عندهم من يُبعث من عند الله تعالى بدون أي كتاب، ولكن الذي يُبعث من عند الله رسولاً مع كتاب فلا بد أن يكون نبيًّا أيضًا. فما الداعي أن يسمي القرآن هنا موسى نبيًّا بعد أن سماه رسولاً؟ صحيح أن النبي عندهم لا يكون رسولاً بالضرورة، ولكن ألا يكون الرسول نبيًّا بالضرورة؟ إذ من المستحيل أن يكون أحدٌ مبعوثًا من عند الله تعالى، ويأتي بكتاب، ومع ذلك لا يكون نبيًّا، بينما يمكن أن يكون أحد نبيًّا بدون أن يأتي بكتاب. ولكن القرآن الكريم قد سمى موسى رسولاً ثم نبيًّا حيث قال ﴿وكان رسولاً نبيًّا﴾. ولو كان المراد هنا بيان درجة موسى عليه السلام لقال الله تعالى "وكان نبيًّا رسولاً".. أي كان نبيًّا كما أعطيناه الكتاب أيضًا. ولكنه تعالى يسميه رسولاً ثم نبيًّا. فماذا تعني هذه الجملة القرآنية على ضوء ما يقوله عامة المسلمين؟ إنما الجاهل الذي يقول مثلا: فلان سِنُّه أربعون

سنة، ولكن سِنّه عشر سنوات أيضًا. بيد أنه يمكن لأحد أن يقول: إن فلانًا سنه عشرة أعوام، ولكن الله تعالى أخبرني أنه سيعيش أربعين سنة. إن القرآن الكريم كتاب حكيم، وهو كلام رب عليم؛ فكيف يمكن أن يقول إن فلانًا رسول ونبي أيضًا، في حين أن النبوة مشمولة في الرسالة؛ إذ من المحال أن يكون أحد مبعوثًا من عند الله تعالى، ويأتي بكتاب، ومع ذلك لا يكون نبيًّا.

فثبت أن ما يقوله هؤلاء المفسرون لا ينطبق هنا، بل لا بد لنا من تفسير قوله تعالى ﴿إنه كان رسولاً نبيًّا﴾ بمفهوم آخر. وليس ذلك المفهوم إلا ما تذكره جماعتنا أي أن الرسول يعني من يُرسل ويُبعث، والنبي يعني من ينبئ ويخبر. وهذا صحيح تمامًا، حيث يكون الإنسان أولاً مرسَلاً ثم نبيًّا، أي أنه يُرسَل من عند الله تعالى أولاً، ثم يخبر الناسَ بما عنده من أخبار إلهية. فثبت أن الرسالة مقامها قبل النبوة، إذ يستحيل أن يكون أحد نبيًّا ما لم يكن مرسلاً. فمثلاً لما قال الله تعالى لنبينا يا محمد، إني أبعثك لإصلاح الدنيا فصار ﷺ رسولاً، وعندما قال النبي ﷺ يا أهل مكة إني أخبركم من عند الله تعالى بكذا وكذا من الأخبار والأنباء، فصار نبيًّا. وبالمثل حين قال الله تعالى لعيسى عليه السلام يا عيسى إني أرسلك إلى الناس فصار رسولاً، وحينما قال عيسى يا أيها الناس إني أخبركم بأن الله تعالى قد أمركم بكذا فصار نبيًّا. ذلك أن الرسول هو من يتلقى رسالة ما، والنبي من يخبر برسالة ما، إذ لا بد لـــه أن يسمع أولاً ثم يخبر بما سمعه؛ وإلا فكيف يمكن أن يبلّغ أولاً ويسمع فيما بعد. ومن أجل ذلك كلما ورد في القرآن الكريم لفظا الرسول والنبي معًا ذُكر الرسول قبل النبي. قال الله تعالى ﴿ما كان محمدٌ أبا أَحَد من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتَمَ النبيين﴾(الأحزاب: ٤١)، وقال تعالى ﴿الذين يتّبعون الرسولَ النبيَّ الأُمّيَّ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل﴾(الأعراف: ١٥٨)، وقال تعالى ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبيِّ الأُمّيّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون﴾(الأعراف: ١٥٩). فترى في كل هذه المواضع أن الرسول ذُكر قبل النبي. ويقول الله تعالى في هذه السورة نفسها عن إسماعيل عليه السلام ﴿وكان رسولاً نبيًّا﴾، مع أنه لم يؤتَ أي كتاب باعتراف الجميع، وإنما كان تابعًا للشرع الذي أتى به

إبراهيم عليهما السلام. ولم يؤمن بإبراهيم إلا إسماعيل وإسحاق ولوط وبعض من خدمه؛ فإذا كان إسماعيل الذي جاء بعد إبراهيم مباشرة قد أوتي كتابًا منفصلاً فمن الذي عمل بشرعه؟ فثبت أن ما يذكره القرآن الكريم هنا عن إسماعيل أيضًا يفند المعنى الذي يذكره غير الأحمديين حول النبي والرسول.

الواقع أن الرسول والنبي شيء واحد، لأن الرسول يعني المرسَل (MASSENGER)، والنبي يعني من يأتي بالأنباء بكثرة. ومن الواضح أن الذي يبعثه الله رسولاً لا بد أن يعطيه رسالة ما، والشخص الذي يخبر الناس بأخبار الغيب لا بد أن يكون مرسلاً من عند الله تعالى أيضًا. فالمأمور من عند الله تعالى يسمى رسولاً من حيث كونه مرسلاً من عنده ﷻ، ويسمى نبيًّا من حيث إخباره الناس بالغيب. فالذي يكون رسولاً لا بد أن يكون نبيًّا أيضًا لأن الله تعالى لا يبعث أحدًا بغير رسالة ما، أما الذي يكون نبيًّا فلا بد أن يكون رسولاً أيضًا، لأنه إذا لم يكن مرسَلاً من عند الله تعالى فهو مفترٍ بلا شك، والمأمورون من عند الله تعالى لا يكونون مفترين.

وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

جانب: الجانب: الناحية والطرَف (الأقرب).

الطور: الجبلُ؛ جبلٌ قربَ أَيلةَ إلى سيناءَ أو سينين (الأقرب).

الأيمَن: اليمينُ؛ ذو اليُمن (الأقرب).

ولفظ ﴿الأيمن﴾ يفيد هنا صفةً للجانب أو للطور. فإذا كان بمعنى اليمين وصفة للجانب فالمعنى أننا نادينا موسى من الناحية اليمنى لجبل الطور. أما إذا كان صفة للطور فالمعنى أننا نادينا موسى من الطور الذي كان على يمينه. ولكن هذا المعنى لا يدل على حكمة ما، فالأولى أن نفسر الأيمن بمعنى المبارك ذي اليُمن، فيكون مفهوم

الآية أننا نادينا موسى من الناحية المباركة من جبل الطور.. أي ناحيته التي كانت مهبطًا لوحي الله تعالى في الماضي أيضًا، وبتعبير آخر، ناديناه من الطور المبارَك.

التفسير: يتضح من هذه الآية أن المكان الذي يكون مهبطًا لوحي الله تعالى يصبح مباركًا. لقد رأيت أن بعض حديثي العهد في جماعتنا حين يرون أفراد جماعتنا يقبّلون يدي يتساءلون: أليس تقبيل الأيدي شركًا؟ ويثار هذا السؤال خاصة من قبل الإخوة الجدد القادمين من فرقة "أهل الحديث". مع أن الثابت من الحديث بكل جلاء أن الصحابة أيضًا كانوا يقبّلون يد الرسول ﷺ (ابن ماجه: أبواب الأدب، باب الرجل يقبّل يد الرجل). إن هؤلاء يُسمَّون "أهل الحديث"، ولكنهم ينسون مثل هذه الأحاديث. الواقع أن الجماد أيضًا يصبح مباركًا باتصاله بشخص مبارك. كما أن المكان الذي ينـــزل فيه وحي الله تعالى أيضًا يصبح مباركًا. في أيام الفتن الأخيرة كان بعض المسؤولين يزورونني حاملين إلي رسائل الحكام، وكلما جاءوني قالوا لي معتذرين: قد جئناك بهذا مضطرين خجلين، لأن الحكومة هي التي حمّلتنا هذه المسؤولية الحساسة، فماذا نفعل إذا لم نطع أوامرها؟ وذات مرة اعتذر أحدهم بهذا الأسلوب فقلت لـــه: أخبِرْني، هل كان نعل الرسول مباركًا أم لا؟ قال: نعم، لأن الرسول ﷺ كان يلبسها. فقلت: أخبِرْني الآن، هل كان حذاء أبي جهل منحوسًا أم لا؟ قال: بكل تأكيد، لكونه في قدم أبي جهل. قلت: ما هي الميزة الذاتية في نعل الرسول ﷺ حتى اعتبرناه مباركًا، وما هو القبح الذاتي في حذاء أبي جهل حتى اعتبرناه منحوسًا؟ ثم قلت لـــه: إن الإنسان يُعَدَّ بارًّا لو صار سلاحًا لشخص بار ولو بغير إرادة، وبالمثل إنه يُعَدّ شريرًا لو صار سلاحًا لبعض الأشرار ولو من غير إرادة. كذلك صار ذلك الجبل مباركًا لنـــزول كلام الله على موسى في بعض نواحيه. ما هي الميزة الذاتية في الكعبة حتى تُعتبر مكانًا مباركًا؟ إنما تلك الميزة أنها مكان قد نـــزل كلام الله تعالى عنده، وقام أنبياء الله تعالى بالعبادة والدعاء قربَه، فنـــزلت عليهم نعمه وبركاته ﷻ. فالمكان الذي تنـــزل فيه بركات الله على أحد يظل مباركًا على الدوام. بل الحق أن انتزاع

البركة من الإنسان ممكن، لأنه إذا صار آثمًا متنكبًا عن سبيل الخير حُرم من بركة الله تعالى، ولكن الأشياء التي لا حياة فيها لا ترتكب الإثم، فإذا نـــزلت فيها البركة من عند الله تعالى مرة ظلت مباركة على الدوام، ولا تُنـــزع منها البركة أبدًا.

هذا، وإن هذه الجملة القرآنية تتضمن الإشارة إلى أن الوحي بجانب الطور كان جدَّ مبارك لموسى عليه السلام وقومه.

أما قوله تعالى ﴿وقرّبْناه نجيًّا﴾ فاعلم أن لفظ ﴿نجيًّا﴾ لـــه ثلاثة معان: الأول: مَن تُسارُّه، والثاني: مَن تحدّثه، والثالث: السريع، يقال "ناقة نجيّة" أي سريعة (الأقرب). ويمكن انطباق هذه المفاهيم الثلاثة كلها هنا كالآتي:

الأول: أننا قرَّبْنا موسى إلينا من خلال كلام سريّ، أي بإطلاعه على العلوم الروحانية ودقائق العرفان. علمًا أن الكلام السري لا يعني هنا التوراة، إذ لم تكن سرًّا مخفيًّا على الناس، وإنما نـــزلت لكي يطلعوا عليها لأن الشرع إنما ينـــزل لهداية الناس. فثبت أن لفظ ﴿نجيًّا﴾ هنا يشير فقط إلى الأمور التي اطلع عليها موسى دون الناس. ثم من الناحية العقلية أيضًا لا يمكن أن يسمى سرًّا إلا الشيء الخفي الذي لا يطلع عليه الآخرون. إذاً فالمراد من هذه الآية أننا قرّبْنا موسى إلينا، وتحدثنا معه بكلام لم يشرك معه فيه أحد. لقد كشفنا عليه علومًا روحانية، وتحدثنا معه حديث المحبة والأنس، وأعثرْناه على أسرارنا الخاصة.

إن هذه الجملة تتضمن الإشارة أيضًا إلى أن الذين يكشف الله عليهم أسرار الشرعِ أو الروحانية يجعلهم من المقربين لديه سبحانه وتعالى.

الثاني: ويعني النجي أيضًا "مَن تُحدّثه"، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وقرّبْناه نجيًّا﴾ أننا قربّنا موسى إلينا عبر كلامنا معه. فأنـــزل الله عليه التوراة التي انتفع بها الناس ألفي سنة.

الثالث: ومن معاني النجي "السريع"، فالمراد أننا قد اخترنا موسى، ثم قلنا لـــه: تعال إلينا بسرعة، فجاءنا مسرعًا. كما سجل القرآن الكريم في موضع آخر قول موسى عليه السلام ﴿وعجلتُ إليك ربِّ لترضى﴾(طه: ٨٥). كما يمكن أن يكون المعنى أننا قرّبناه إلينا مسرعين إليه.. أي أننا أمرناه بالإسراع إلينا، كما بدأنا نسارع إليه

حبًّا وشوقًا إليه. وهذا المعنى مشابه لما ورد في الحديث الشريف بأن العبد إذا أتى اللهَ مشيًا أتى الله إليه هرولةً (مسلم،كتاب العلم، باب فضل الذكر). لقد بدأ موسى يجري إلى الله تعالى، كما أخذ الله يسرع إليه، حتى تم اللقاء.

وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

التفسير: ورد في موضع آخر في القرآن أن موسى عليه السلام دعا ربه ﷻ ﴿واجعَلْ لي وزيرًا مِن أهلي﴾(طه: ٣٠).. أي هبْ لي مساعدًا من أقاربي. فاستجاب الله دعاءه ووهب لأخيه هارون أيضًا منصب النبوة. أما قوله تعالى هنا ﴿ووهبْنا لـه مِن رحمتنا أخاه هارون نبيًّا﴾ فهو إشارة إلى أن طابع نبوة هارون مختلف عن طابع نبوة الأنبياء الآخرين، حيث قيل إن موسى مُنح هارون رحمةً من الله ﷻ. وكأن مقام هارون من موسى - عليهما السلام - هو مقام الخادم والتابع من سيده.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾

التفسير: هنا قد عاد الله تعالى بالحديث كله إلى إسماعيل عليه السلام ثانية، لينبه أن السلسلة المسيحية ليست سلسلة مستقلة، وإنما هي حلقة من السلسلة الموسوية. وكانت السلسلة الموسوية وثيقة الصلة بإبراهيم عليه السلام الذي كان لـه ابنان إسماعيل وإسحاق. وكان ثمة وعد من الله لإبراهيم بأنه تعالى سيبارك في إسحاق ونسله، وسينجز وعده من خلال إسحاق. كما كان هناك وعد من الله تعالى لإبراهيم في حق إسماعيل بأنه تعالى سيباركه وسيكثّره، ويجعله أمة كبيرة. وتكشف لنا التوراة أيضًا أن هذا العهد الإبراهيمي سيتحقق من خلال الولدين كليهما وإن كان إنجازه سيبدأ على يد إسحاق أوّلاً. ومن أجل ذلك قد بدأ الله تعالى الحديث في هذه السورة بذكر إبراهيم أولاً ثم إسحاق. ثم بعد ذلك تحدث عن موسى تنبيهًا

للنصارى إلى أن عيسى لم يكن إلا بمثابة حلقة أخيرة من إحدى السلسلتين لنسل إبراهيم، فكيف ترفعون المسيح إلى السماء ظانين أن المخلص الأخير الموعود للدنيا قد أتى في شخصه. إنكم تعرفون أننا وعدنا إبراهيم في حق إسحاق وأيضًا في حق إسماعيل. وقد أنجزنا وعدنا الخاص بنسل إسحاق، وجاء المسيح إلى الدنيا كآخر حلقة من سلسلة ذلك الوعد. ويجب عليكم الآن أن تتذكروا الابن الآخر لإبراهيم. ألم يكن لزامًا علينا أن ننجز ما وعدْنا إبراهيم في حق هذا الابن أيضًا؟ لقد بعثنا نبيًّا عظيمًا كموسى إنجازًا لوعدنا في حق بني إسحاق، أما الآن فقد حان إنجاز الوعد الخاص بإسماعيل، فبعثنا من نسله محمدًا رسول الله ﷺ.

باختصار قد ذكر الله تعالى إسماعيل هنا للإشارة إلى الظهور الثاني لتحقُّق الوعود الإبراهيمية، حيث نبه المسيحيين أن اعتبار ما تزعمونه عن المسيح صحيحًا يماثل إلغاءَ وعود الله تعالى في حق إسماعيل، وضياعَ الأدعية الإبراهيمية، مع أن الله تعالى قد قطع مع إبراهيم الوعود من نوعين: وعود في حق إسحاق ووعود في حق إسماعيل. وبتعبير آخر، قد وعد الله تعالى إبراهيم بسلسلتين من البركات من نسله، واحدة من بني إسحاق، وأخرى من بني إسماعيل. وبرغم أن إسماعيل كان ابنه الأكبر إلا أن الله تعالى أخبره أنه سيبدأ إنجاز وعده بواسطة إسحاق. فبدأت السلسلة الأولى من تلك البركات من خلال بني إسحاق، فوهبهم الله الحُكم والنبوة لمدة ألفي عام. ولو أن هذه البركات الإبراهيمية انتهت عند المسيح لصار وعد الله تعالى في حق إسماعيل باطلاً كلية. فقول النصارى أن المسيح قد نال مقامًا انتهت عنده بركات العهد الإبراهيمي يخالف التوراة مخالفة صارخة. فعليهم أن يتّجهوا الآن إلى السلسلة الأخرى من بركات إبراهيم التي بدأناها من نسل ابنه الثاني إسماعيل.

أما قوله تعالى ﴿إنه كان صادقَ الوعد وكان رسولاً نبيًّا﴾ فهو بمثابة تعنيف شديد للمسيحيين واليهود، حيث بين الله تعالى لهم أن إسماعيل كان صادق الوعد في رأيكم، ولكني لست صادق الوعد عندكم. كان إسماعيل على أهبة الاستعداد دائمًا لأن يضحي بحياته في سبيلنا، وذلك بحسب اعترافكم حيث ورد في الكتاب

المقدس نفسه: "يدُه على كل واحد، ويدُ كل واحد عليه. وأمامَ جميع إخوته يسكُن" (التكوين ١٦: ١٢).. أي أنه سيقضي حياته كلها تحت ظلال السيوف، وسيظل دائمًا في حرب ضد إخوته في سبيل الدين. كما ورد فيه أيضًا: "وكان الله مع الغلام فكَبُرَ" (التكوين ٢١: ٢٠). وهذا يعني أن الكتاب المقدس نفسه يشهد على أن إسماعيل قد مر بظروف حالكة السواد ومع ذلك لم يترك ربَّه ﷻ. فما دام إسماعيل قد بلغ هذه الدرجة من التضحية في سبيل الدين، وظل مستعدًا لأن يلقي نفسه في الأخطار والمهالك ابتغاء مرضاة الله تعالى، فهل تريدون، يا أتباع المسيح، أن أخذل مثل هذا الإنسان العظيم، ولا أحقق الوعود التي قطعتُها في حق أولاده، رغم أنه كان ﴿رسولاً نبيًّا﴾؟ أي لقد بعثتُه إلى الدنيا، وأخبرتُ بواسطته بعض الأنباء. وكأنه تعالى يعلن هنا أن النبوءات التي أخبرتُ بها في حق إسماعيل أخبار مزدوجة، حيث وعدتُ إبراهيم أولاً بالبركة في نسل إسماعيل، ثم أكدت هذا الوعد ثانية فيما أوحيت إلى إسماعيل نفسه الذي كان صادق الوعد. فهل تريدون مني، أيها النصارى، أن أخلف هذه الوعود، فأكذّب إبراهيمَ، وأكذّب إسماعيلَ الذي كان صادق الوعد، كما أكذّب نفسي أيضًا؟

وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا ﴿٥٥﴾

التفسير: لما قال الله تعالى لإسماعيل عليه السلام إني سأُخرج من نسلك قومًا سيكونون حملة لواء الرشد والهدى، صمّم على أن يعلّم أولاده البر والتقوى على الدوام، ليتمّ وعد الله على ما يرام. فكان يأمر أهله بالصلاة والدعاء والزكاة، ويقوم بالمهام التي عهدها الله إليه أحسن قيام، فرضي الله عنه رضوانًا كبيرًا. ورغم هذه الحقائق كلها تقولون أن الله تعالى قد اتخذ المسيح ابنًا، ثم بعثه إلى الدنيا، وأنه لن يبعث الله بعده أحدًا لنجاة الناس؟ هل من العقل والمنطق أن لا تتحقق نبوءاتنا التي لا نزال نؤكدها باستمرار منذ زمن بعيد؟

إنه لمن المؤسف أن المفسرين لم يدركوا الحكمة وراء ذكر الله تعالى إسماعيل هنا؟ ولماذا ذكر قبله موسى وهارون؟ ولماذا ذكر قبلهما إسحاق ويعقوب؟ ولماذا ذكر

قبلهما إبراهيم؟ إنما اكتفى المفسرون بقولهم إن الله تعالى قد ذكرهم ذكرًا عشوائيًّا من غير حكمة وغاية. وكأنهم يقولون أن الله تعالى – والعياذ به – قد فعل كما نفعل نحن البشر حيث نذكر بعض الأحيان بالخطأ أسماء القوم ذكرًا عشوائيًّا لا ترتيب فيه ولا نظام. مع أن الواقع أن الله تعالى قد ذكر هنا اسم كل نبي في محله وفق هذا الترتيب لهدف خاص. فكان من المفروض أن يذكر زكريا أولاً، ثم يحيى ثم المسيح ثم إبراهيم ثم إسحاق ويعقوب ثم موسى وهارون، وأخيرًا إسماعيل. ذلك لأنه تعالى استهدف من هذا الترتيب أن يبين أن نزول البركات في نسل بني إسحاق قد تم وانتهى، فليتّجهوا الآن إلى نسل بني إسماعيل. فالله الذي قد أخرج من الابن الأول هذه السلسلة الطويلة من الأنبياء، ألا يخرج من الابن الثاني سلسلة أخرى طبقًا لما وعد؟

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٧﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيّٗا ﴿٥٨﴾

التفسير: ينشأ حول هذه الآية سؤالان؛ الأول: من هو إدريس عليه السلام؟ والثاني: لماذا ذُكر إدريس هنا؟

إن أكثر المفسرين متفقون على أن إدريس هو أخنوخ* الذي هو وَلَدُ سِبطِ آدم، وهو جدُّ نوح عليهم السلام أجمعين (فتح البيان، الدر المنثور)؛ واسمه بالإنجليزية Enoch.

ويقول بعضهم إن إدريس هو إلياس. وقد كان السبب الأول الذي حدا بهم إلى اتخاذ هذا الرأي فهو اعتقاد البعض أن إلياس قد رُفع إلى السماء أيضًا. أما السبب الثاني هو أنه كانت هناك نبوءة عن نزول إيليا من السماء ثانية قبل ظهور المسيح، فهذا التشابه بين المسيح وإلياس جعلهم يظنون أن إدريس هو إلياس. ولكن أصحاب هذا الرأي قلة. ومما يدل على خطأ هذا الرأي أيضًا أن القرآن قد ذكر إلياس في مواضع أخرى، ومن غير المعقول أن يذكر القرآن إلياس هنا باسم آخر.

* علمًا أن ما ورد في الأصل الأردو هو حنوك، أما المصادر العربية فتذكره أخنوخ *(المترجم)*.

لو كان النطق بلفظ إلياس صعبًا على العرب لقلنا إن أصحاب هذا الرأي على الحق، ولكن ما دام أن القرآن الكريم قد استعمل اسم إلياس في مواضع أخرى فمن الخطأ تمامًا اعتبار إدريس هو إلياس، إذ لا دليل على صحة هذا الرأي.

كما أن هناك تشابهًا بينَ أخنوخ وإدريس من حيث المعنى. فأخنوخ يعني في العبرية Dedication أي وقفُ الشيء، أو Instruction أي التعليم والتدريس (الموسوعة التوراتية مجلد ٢: Enoch). أما إدريس فيعني كثير الدارسة والتدريس، إذ هو مشتق من درس. وكأن إدريس يتضمن أيضًا معنى Dedication و Instruction كليهما، لأن المرء إذا عكف على عمل صار ماهرًا فيه، ونذر نفسه له. فترى أن "إدريس" يعني في العربية ما يعني "أخنوخ" في العبرية.

يقول صاحب أقرب الموارد عن إدريس إنه "عَلَمٌ أعجميٌّ". ذلك أن العَلم إذا كان غير منصرف كان أعجميًّا. فلولا أنه عَلَمٌ غير منصرف لكان عربيًّا.

أما ابن السكيت فيرى أنه غير منصرف ولكنه عَلم عربي. وقد تمسك برأيه هذا بشدة وهو يدّعي أن لإدريس معنى في العربية. فهو مشتقّ مِن الدرس مثل إبليس الذي اشتُقّ من الإبلاس، ويعقوب من العقب، وإسرائيل من الإسرال.

وأقول: إن هناك أسماء أخرى أيضًا – لم يذكرها ابن السكيت – قد اشتُقت من الكلمات العربية مثل إضحاق من الضحك وإسماعيل من السمع.

غير أن رأي ابن السكيت هذا مرفوض عند اللغويين الآخرين، وحجتهم في ذلك أنه لو كان لفظ "إدريس" لفظًا عربيًّا لما كان غير منصرف، فمنعُ صرفه دليل على عجمته، لأن العَلم العربي يكون منصرفًا.

ويرى الأصمعي والقرطبي وصاحب الكشاف أنه يجوز أن يكون معنى "إدريس" في تلك اللغة الأجنبية قريبًا من ذلك، فحسِبه ابن السكيت من الدرس خطأً، وظنّه عربيًّا. (تفسير القرطبي)

ولكنني أرى أن كلا الفريقين على الخطأ. لقد أخطأ ابن السكيت حين اعتبر "إدريس" عربيًّا، إذ لو كان عربيًّا لما كان غير منصرف بحسب قواعد اللغة. أما

العلماء الآخرون الذين قالوا إن إدريس لفظ أعجميّ ولذلك صار غير منصرف، فهم أيضًا لم يدركوا الحقيقة المبتغاة. ذلك لأن هؤلاء أيضًا يعترفون أن اسمه أخنوخ. إذًا فإدريس ترجمة لـ "أخنوخ". وما دام هذا الاسم اسمًا مترجَمًا فإنه لم يعد عَلَمًا، وبالتالي لم يعد غير منصرف، لأن الاسم يُمنع من الصرف إذا كان عَلَمًا أعجميًّا. إذا كان إدريس ترجمة للفظ "أخنوخ" فقد زالت عنه العَلَمية، ولو كان إدريس عَلَمًا فليس هو اسمًا للنبي أخنوخ، بل هو اسم نبي آخر. أما إذا كان إدريس اسمًا لأخنوخ نفسه فثبت أنه ترجمة لأخنوخ، وبالتالي فإنه يفقد العَلَمية. إذًا فالذين قالوا أن إدريس غير منصرف قد وقعوا في الخطأ يقينًا، إذ ليس هناك سبب ظاهر لاعتباره غير منصرف.

تعالوا نتدبر الآن فيما جعل العربَ يعتبرون إدريس غير منصرف مع أنه ترجمة للفظ أخنوخ. لا شك أن اسم إدريس كان متداولاً بين العرب، وقد اعتبروه ممنوعًا من الصرف حتى قبل نزول القرآن الكريم. إذًا فعلينا أن نعرف السبب الذي دفعهم إلى اعتباره، خطأً، ممنوعًا من الصرف؟

الواقع أن علماءنا ما زالوا منخدعين أن لهم باعًا طويلة في دراسة اللغات الأجنبية مثلما أنهم أساتذة اللغة العربية. لقد كانوا جهابذة اللغة العربية بلا مراء، ولكن دراستهم للغات الأجنبية كانت محدودة جدًّا، كما كانت معلوماتهم عن الأديان الأخرى ضئيلة وسطحية للغاية. فعندما نطالع التفاسير، ونقرأ ما نقلوا فيها عن الكتاب المقدس من أحداث ومعلومات ينتابنا الخجل الشديد؛ لأن ما عزوه إلى التوراة والإنجيل خلاف للواقع ولا يوجد له فيهما من أثر. لقد ذكروا في تفاسيرهم أمورًا كثيرة لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة. يقولون هذا ما ورد في التوراة وهذا ما يقول الإنجيل، مع أن هذه الأقوال لا يوجد لها أصل لا في التوراة ولا في الإنجيل. ذلك لأنهم أثبتوا في تفاسيرهم ما سمعوه شفاهةً من أفواه اليهود. كان هؤلاء اليهود يتلاعبون معهم، ويمدّونهم بمعلومات زائفة، ولكنهم كانوا يصدّقون اليهودَ، دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء البحث والتحقيق، ظانين أنهم لا بد أن يكونوا أمناء فيما يخبرونهم عن ديانتهم. فكلما أرادوا معلومة تتعلق بالعهد القديم ذهبوا

إلى أولئك اليهود، فنسجوا لهم قصصًا ملفقة، فأثبتوها في تفاسيرهم، مما كان يجعل اليهود يضحكون على سذاجتهم ساخرين.

لا جرم أن هذا الأمر كان دليلاً على طيبة علمائنا وصفاء قلوبهم، ولكنه يكشف لنا أيضًا أن معلوماتهم عن الديانات الأخرى كانت ناقصة ومحدودة جدًّا. وإنْ وفّق الله تعالى المسلمين في يوم من الأيام لتطهير تفاسيرهم من الإسرائيليات لكان هذا حدثًا في غاية الأهمية، وجديرًا بأن يخلّصنا مما نتعرض له الآن من الحرج أمام أتباع الديانات الأخرى. ذلك لأن تفاسيرهم مليئة بالكثير من الأمور الخاطئة المتعلقة بالتوراة والإنجيل. لقد ورد في كتب الحديث أن أحدًا سأل ابن عباس ﷺ مسألة، فقال سأجيبك غدًا. ويقول الراوي: لما ذهب السائل دعاني ابن عباس وقال: اذهب إلى فلان اليهودي واسأله: ماذا ورد في كتبهم بصدد هذا السؤال؟ فقصّ عليه اليهودي قصة سخيفة للغاية. ولما حضره السائل في اليوم التالي حكى له ابن عباس نفس القصة التافهة التي ذكرها اليهودي. فلا شك أن الذنب هنا ذنب اليهودي، ولكن قد حصل تقصير من ابن عباس أيضًا – رضي الله عنهما – حيث صدّق اليهوديَّ الكافر الخبيث من غير تحرٍّ وفحص. لا شك أن ما فعله ابن عباس ﷺ إنما فعله لصفاء قلبه وحسن نواياه، ولكن وجود مثل هذه القصة في تفاسيرنا لعار كبير علينا. إننا في هذا التفسير أيضًا نقوم بالبحث، ولكننا نستعين فيه بالمصادر العربية وغيرها من الكتب العبرية واليونانية، ونقلب المعاجم، ونتصفح التاريخ، ثم نثبت وندون ما خلصنا إليه. ومن الممكن تمامًا أن تظل بعض الأخطاء في بحوثنا، إلا أن ما نقوله يكون أقرب إلى الحق والصواب، لأن بحثنا مبني على حقائق اللغة وأسرارها ووقائع التاريخ. ولكن تفسير بعض هؤلاء المفسرين مبني على أحداث ملفقة وقصص سخيفة فارغة. إذًا فهناك بون شاسع بيننا وبينهم. إذ كان بعضهم يذهب إلى اليهود ويسألهم في بعض القضايا، فكان اليهود يتكلمون معهم مستهزئين، فكانوا يصدّقون قول هؤلاء الأشرار. فمثلاً عندما أراد بعضهم تفسير كلمة "الرعد" ذهب إلى حبر من أحبار اليهود فسأله عن الرعد. فقال له ساخرًا: إن الرعد ملاك في السماء، له كذا من الأجنحة. وكلما حرَّك أجنحته

خرج من كل جناح صوت كصوت الصفّارة. ثم يتحول الصوت طاؤوسًا، تخرج من جناحه نار، ومن تلك النار يتولد الرعد والبرق. فكان هذا كله استهزاءً وسخرية مِن قِبل الحبر اليهودي، ولكن صاحبه المسلِم صدّقه لسذاجته، وظن أن هذا هو تفسير الرعد. وقد حطّ هذا الأسلوب تفاسيرنا جدًا من الناحية العلمية.

وقصارى القول إنه من الحقائق الثابتة أن إدريس كان اسمًا متداولاً بين العرب قبل الإسلام، وأن هناك تشابهًا بين إدريس وأخنوخ من حيث المفهوم. والسؤال الذي يفرض نفسه هو: لماذا أطلقوا على أخنوخ اسم إدريس؟

قد يرجع ذلك إلى أن بعض الناس يكون لهم اسمان. وقد رأينا عديدًا من الناس الذين دعاهم البعض بغير اسمهم المعروف، ثم تبين عند السؤال أن لهم اسمين. فمن التفسيرات المحتملة أن أخنوخ كان يدعى إدريس أيضًا. ولكن المشكلة أن لا أثر لاسم إدريس في كتب اليهود. نعم، نجد اسم "إدراس" (Esdras) في العهد القديم المعروف بـ " The Apocrypha"، والذي هو شِبْهُ المسلَّم به عند اليهود (The Apocrypha, The American Translation p. xi) ، ولكن الأحداث التي ذكرها القرآن الكريم عن إدريس عليه السلام لا تنطبق على إدراس (Edras)، إنما تنطبق على أخنوخ. فلا يمكننا أن نحلّ هذه المعضلة بقولنا أن إدريس اسم آخر لأخنوخ.

وهناك حل آخر لهذه المعضلة. ذلك أن الناس قد يترجمون اسم الشخص المنتمي لشعب آخر إلى لغتهم بغية التوضيح. وهذا ما حصل بأخنوخ. يبدو أن أحد اليهود قد ذكر اسم أخنوخ عند صديقه العربي، فقال له العربي في حيرة: وما هو أخنوخ؟ وكان اليهودي شخصًا ذكيًّا وملمًّا بالعربية – حيث كان اليهود مقيمين حتى في المدينة أيضًا – ففسر لصاحبه معنى أخنوخ، وقال: يمكنك أن تعتبر أن أخنوخ يعني إدريس؛ وبأن العربي الذي سمع هذا الاسم ظن أنه اسم عَلم وأعجمي أيضًا، لأن الذي يذكره أمامه شخص من العجم. لذلك أرى أن هذا هو السبب وراء اعتبار اسم إدريس ممنوعًا من الصرف. شأنه شأن لفظ "وليام William بالإنجليزية الذي يعني صاحب العزم، لأنه في الواقع مركب من كلمتين هما Will ومعناها الإرادة والعزيمة وHelm، ومعناه الخُوذ الحديدي؛ فيكون معنى William

بالعربية صاحب العزم الحديدي، أو الذي هو من أولي العزم. فإذا تحدثنا مثلاً عن شخص من الأشخاص أمام بعض الإنجليز وقلنا له إن ذلك من ذوي العزم، فسَأَلَنا ما هو "ذو العزم"، قلنا له إنه "وليام" بلغتك.. وكأننا نترجم للغته هو اسمَ ذلك الشخص.

وهذا الأسلوب ليس متبعًا لدى أهل الدنيا فحسب، بل هو متّبَع عند الله تعالى أيضًا. هناك رؤيا لي قد نُشرت مفصلةً في جريدة "الفضل" عدد ٢٤ يونيو ١٩٢٤، وقد رأيت فيها أني قد ذهبت إلى إنجلترا، ودخلت فيها كقائد فاتح، وظني أني أنا وليام William الفاتح. وذلك لأني قد سُمِّيتُ في بعض الإلهامات "ذا العزم"، فأراني الله تعالى هذه الرؤيا على شكل ترجمة لهذا اللقب.

فالأمر الواقع عندي أن لفظ حنوك* قد تُرجم للعرب بلفظ إدريس، فظنوا أنه عَلَمٌ، ولما كان المترجم من غير العرب ظنوا أن إدريس عَلَم أعجمي. والحقيقة أن العربية والعبرية لغة واحدة، إلا أن العرب واليهود قد نسوا هذه الحقيقة بمرور الأيام، فظن العرب أن العبرية لغة مختلفة تمامًا عن العربية، كما ظن اليهود أن العربية لغة أجنبية، في حين أن العربية هي اللغة الأم، أما العبرية فكانت لغة بعض القبائل العربية. ولا قيمة للاختلاف الموجود بين اللغتين، إذ نرى أنه حتى اللغة الواحدة تختلف من منطقة إلى أخرى لهجةً ونطقًا.

عندما ذهبت للحج أقمت في جدة عند رجل تاجر يدعى السيد أبا بكر. وكان عنده خادم من أهل اليمن. فكنت أتكلم معه بالعربية، وكان يفهم كلامي جيدًّا على العموم، غير أنه أحيانًا كان ينظر إلى وجهي في حيرة لعدم فهمه لما أقول. فسألت البعض عن السبب، فأخبرني أن ذلك لوجود اختلاف كبير بين الحجازيين واليمنيين في استعمال بعض الكلمات. ثم حكى لي حادثة طريفة. قال: كانت بمكة سيدة من أهل الثراء، وكان عندها خادم يمني – علمًا أن أهل اليمن يفدون إلى مكة بكثرة طلبًا للعلم، وبما أنه لا دخل لهم يعيشون به، فإنهم يعملون كخدام في

* أي أخنوخ بحسب المصادر العربية كما ذكرنا من قبل *(المترجم)*.

البيوت، ومن أجل ذلك تجد في بيوت مكة الكثير من الخدام اليمنيين – وكانت هذه السيدة تدخن النارجيلية مثل الكثير من المكيين الذين يحبون التدخين بالنارجيلية البلورية النفيسة ذات النقوش الجميلة. وذات يوم أرادت السيدة تغيير ماء النارجيلية، فقالت لخادمها اليمني: "غَيِّرِ الشِّيشةَ". ولكن هذه الجملة تعني في اللهجة اليمنية: "اكسرِ النارجيليةَ". فقال لها الخادم في حيرة: "ستِّي هذا طيّبٌ".. أي سيدتي هذه نارجيلية جيدة. فقالت في غضب: لقد أمرتك أن "غَيِّرِ الشِّيشةَ"، وأنت لا تغيّرها؟ فقال ثانية: "ستِّي هذا طيّبٌ". فنهَرته بشدة. فأخَذ النارجيلية ورمى بها عرض الحائط وكسرها. فصرخت المرأة وقالت: ماذا فعلت يا لعين؟ لم كسرتَ هذا الشيء الثمين؟ قال: لقد قلتُ لك مرارًا إنه جميل ثمين فلا تضيعيه، ولكنك أصررتِ على كسره، وتثورين الآن غضبًا عندما نفّذتُ أوامرك؟ فازدادت غضبًا على غضبِ. وأخيرًا أخبرها البعض أن لا ذنب للخادم لأن التغيير يعني التكسير عند أهل اليمن.

إذًا فاللغةُ تتعرض لتغيرات كبيرة من منطقة إلى أخرى. وهذا هو السبب وراء الاختلاف الموجود بين العربية والعبرية. ذلك أن إسماعيل وإسحاق كانا من أبناء إبراهيم عليهم السلام، ولكن بما أن الواحد منهما كان يسكن في منطقة والآخر في منطقة أخرى، فأدى اختلاف المكانين إلى الاختلاف بين العربية والعبرية. ورغم هذا الاختلاف بين اللغتين ستجد أن كل كلمة في العبرية تشبه كلمة في العربية إلا ما شذ وندر. خذوا مثلا لفظ حنوك، فيوجد له أصل عربي وهو حنك. ثم إن صرخة المسيح عليه السلام على الصليب "إيلي إيلي لما شبقتني" أيضًا كلام عربي، حيث صار "سبقتني" عندهم "شبقتني". وبالمثل إن لفظ إسماعيل مركب من "سمع" و"إيل"، فيقال له في العبرية "يشمعئيل" (الكتاب المقدس بالعبرية).

فثبت أن العربية والعبرية لغة واحدة في الحقيقة، والسؤال الذي يفرض نفسه هنا ليس عما هي الحقيقة والواقع، وإنما هو عما يراه العرب. إن العبرية لغة أجنبية عند العرب، كما يرى أهل العبرية أن العربية لغة أجنبية. لذلك فالشخص الذي أخبر العرب عن أخنوخ مترجمًا إياه إلى العربية وقال إنه "إدريس" كان شخصًا عبرانيًّا،

لذلك اعتبر العرب لفظ "إدريس" ممنوعًا من الصرف ظانين أنه عَلم أعجمي. هذا هو السبب وراء اعتباره ممنوعًا من الصرف وإلا فهو لفظ عربي مشتق من الدرس. علمًا أن ابن السكيت قد ذكر أمثلة قليلة جدًّا فقال أن يعقوب من العقب وإسرائيل من إسرال، ولكن الواقع أن جميع الكلمات العبرية تشبه الكلمات العربية. الحق أن العربية والعبرية أختان، أو يمكن القول إن العربية أم والعبرية سليلتها. لا شك أن السنسيكريتية وغيرها أيضًا سليلات للعربية، ولكنها بمنزلة الحفيدات، أما العبرية فقد خرجت من بطن العربية. فبما أن أهل العبرية أخبروا العرب عن أخنوخ مترجمين إياه على شكل إدريس فظن هؤلاء أن "إدريس" عَلم أعجمي. ولقد قال الأصمعي والقرطبي والزمخشري إن من يقول بكون "إدريس" لفظًا عربيًّا هو جاهل، ولكن قولهم هذا يشكل دليلاً على جهلهم هم. إذ الواقع أن يعقوب مشتق من العقب، وإسماعيل مركب من "سمِع" و"إيل"، وإدريس من الدرس. أما يسوع فهو مشتق مِن ساعَ يسُوع أي هلَك وزال. إذ إنه كان من المقدر أن يعلَّق المسيح عليه السلام على الصليب، فسُمي يسوع للإشارة بأنه سيقع في بلية شديدة؛ مثلما جعل الله تعالى أُمَّ الرسول ﷺ وجَدَّه يسمّيانه محمدًا، دلالةً على نجاحه في هدفه وسمو سيرته ﷺ.

إذًا فإن هذا الخطأ أو الإشكال راجع إلى جهل هؤلاء بدقائق العربية والعبرية. ولذلك ترى أن الذين اعتبروا "إدريس" أعجميًّا قالوا أنه لا معنى له مثلما قالوا عن إسماعيل وإضحاق وإسرائيل، مع أن جميع هذه الأسماء لها مفاهيم ومعان. لقد قال ابن السكيت إن إسرائيل من إسرال، وهذا غلط، لأن إسرائيل في العبرية هو يسرائيل الذي يعني "بطلُ اللهِ" لأنه مركب مِن "يسر" أي المحارب الشجاع البطل ومِن "إيل" أي الإله. أما حنوك الذي يسمى بالإنجليزية Enokh فمعناه الدارس الجيد أو المدرّس كما بيّنتُ من قبل؛ فثبت أن إدريس ترجمة عربية لحنوك. ولكن بما أن العرب قد أُخبروا عن معنى حنوك على شكل لفظ إدريس ظنوا أن "إدريس" عَلم، وبما أنهم سمعوا هذا المعنى التفسيري لحنوك من اليهود اعتبروه أعجميًّا أيضًا، فصار إدريس عندهم عَلمًا أعجميًّا ممنوعًا من الصرف.

لقد ذُكر اسم حنوك أي إدريس في التوراة في أماكن عديدة حيث جاء في سفر التكوين أن قايين – وهو الذي يسمى في العربية قابيل، وقام بقتل أخيه هابيل – كان له ابن اسمه حنوك. ووُلد لحنوك عيراد، وعيرادُ ولَد مَحُويائيل، ومحويائيلُ ولَد مَتُوشائيل، ومتوشائيلُ ولَد لامَكَ، وولَد لامكُ يابالَ ويُوبالَ مِن زوجة، وتوبالَ قايين من زوجة أخرى (انظر سِفر التكوين ٤: ١٧-٢١).

ثم جاء ذكر حنوك في موضع آخر حيث ورد أن الله تعالى رزق آدمَ مكانَ هابيل ابنًا آخر اسمه شيث. فولَد شيثٌ أَنُوشَ، وولَد أنوشُ قينانَ، وولَد قينانُ مَهْلَلْئيلَ، وولَد مَهْلَلْئيلُ يارَدَ، وولَد يارَدُ أخنوخَ وولَد حنوكُ مَتُوشالَح، وولَد مَتُوشالَحُ لامكَ، وولَد لامكُ نوحًا (التكوين ٥: ٣- ٢٩).

لقد تبين من هذه الفقرات أن اسم حنوك (أو أخنوخ) كان قد لقي القبول والرواج منذ بداية الإنسانية، حيث وُجد شخصان بهذا الاسم في بضعة أجيال من ذرية آدم عليه السلام؛ أحدُهما حنوك بن قابيل، والثاني حفيد شيث في جيله الخامس، والذي يسمى إدريس أيضًا، وكان هذا جدًّا لنوح عليه السلام.

وبحسب الروايات الإسلامية عن نسب آدم كان النبي الأول هو آدمُ الأبُ، والنبي الثاني هو شيثٌ بن آدم، والنبي الثالث هو حنوك الذي كان حفيدًا لآدم في جيله الخامس، والنبي الرابع هو نوح حفيد حنوك.

أحوال حنوك: لقد ورد في التوراة أن أخنوخ عاش ثلاثمائة وخمسًا وستين سنة. وبعد ولادة ابنه الأول متوشالح، أي في سن الخامس والستين صار أخنوخ مقربًا لدى الله تعالى، وظل في هذا المقام ثلاث مئة عام. ونص العبارة هي: "وسارَ أخنوخ مع الله بعد ما ولد متوشالح ثلاث مئة سنة... وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخَذه" (التكوين ٥: ٢٢-٢٤).

والمفهوم الجلي لهذه العبارة أن حنوك، أو إدريس، عاش في معية الله، وظل متمتعًا بمعية الله وقربه حتى الموت. ولكن الويل للذين يشددون على التمسك بحرفية الكلام، حيث يرى بعض المعجبين بالخرافات، يهودًا ومسلمين، أن جملة "ولم يوجد

لأن الله أخَذه" تعني أنه تعالى قد رفعه إلى السماء. وهكذا صار إدريس، بحسب هؤلاء المسلمين، ضمنَ قائمة المرفوعين إلى السماء التي تضم المسيح الناصري أيضًا.

ولكن العهد القديم نفسه يذكر أمرًا آخر وهو "وسار أخنوخ مع الله"، فإذا كان هؤلاء يصرّون على التمسك بالمعنى الحرفي لجملة "ولم يوجد لأن الله أخَذه" فلا بد لهم من أن يفسروا جملة "وسار أخنوخ مع الله" أيضًا تفسيرًا حرفيًّا؛ فيقولوا أن حنوك لما بلغ خمسًا وستين سنة صعد إلى السماء، وصعدت معه امرأته، ووُلد له هناك كثير من البنين والبنات (التكوين ٥: ٢٣)؛ ذلك لأن سيره مع الله تعالى وولادة البنين والبنات عنده قد حصل في ذلك العمر نفسه، ثم ظل هناك يسير مع الله تعالى طوال حياته؛ أو عليهم أن يقولوا أن حنوك لم يصعد إلى السماء قط، بل لما بلغ خمسًا وستين سنة هبط الله نفسه إلى الأرض ليسير معه حنوك باقي عمره. ولكن بما أن صعود الله ﷻ إلى السماء بعد ذلك الحدث ليس بثابت من العهد القديم، فلا مناص لهم من التسليم أنه تعالى أقام منذ ذلك فصاعدًا على الأرض!

إذًا فقضية صعوده إلى السماء في سن الثلاث مائة وخمس وستين عامًا لا تثبت من هذه العبارة بشكل من الأشكال.

خلاصة القول إنهم قد فسروا فقرات الكتاب المقدس تفسيرًا غير طبيعي ومنافيًا للسنة الإلهية، فعزوا إلى الله تعالى وإلى الكتاب المقدس المهازل التي لا يقبلها العقل بتاتًا. مع أن المعنى كان بسيطًا واضحًا بأن حنوك ظل مقربًا لدى الله تعالى في حياته وسيكون بعد مماته أيضًا من المقربين.

لقد ورد تعبير السير مع الله تعالى في حق أشخاص آخرين أيضًا في الكتاب المقدس، ولكن لا أحد من هؤلاء يفسره هناك بمعنى الصعود في السماء. فقد ورد عن نوح عليه السلام مثلاً: "وسارَ نوحٌ مع الله" (التكوين ٦: ٩).

وورد عن إبراهيم عليه السلام أن الله تعالى قال له : "سِرْ أمامي، وكُنْ كاملاً" (التكوين ١٧: ١).

ثم يخاطب الله تعالى بني إسرائيل كلهم ويقول: أيها الإنسان، ماذا يطلب منك الرب؟ إنما يطلب منك أن "تسلك متواضعًا مع إلهك" (ميخا ٦: ٨). فهل يعني ذلك أن يسير بنو إسرائيل كلهم مع الله تعالى منكسري الرأس سيرًا حرفيًّا.

فثبت أن السير مع الله تعالى لا يعني أبدًا أن الله تعالى مقيم في مكان معين حيث يسير الإنسان معه، كما أن أَخْذَ الله لأحد لا يعني أنه نقله من مكان إلى آخر، وإنما المعنى أنه مات ميتة حسنة، وأنه سيكون بعد موته أيضًا من المقربين لدى الله تعالى.

لقد ذُكر حنوك أو إدريس في العهد الجديد أيضًا، ولكن المسيحيين قد كتبوه فيه حنوق بدل حنوك تظاهرًا بعلمهم. ولكنه غلط، حيث بينتُ من قبل أن أصله، وهو "حنك"، موجود في العربية. ورد في العهد الجديد: "بالإيمان نُقل أخنوخ لكي لا يرى الموت. ولم يوجد لأن الله نقله" (رسالة بولس إلى العبرانيين ١١: ٥).

هذه العبارة توضح جليًّا أن بولس كان متأثرًا بالعقيدة العامة لليهود أن حنوك نجا من الموت لصلاحه، فرُفع إلى السماء. ذلك بالرغم أن هذه العقيدة تتعارض مع المسيحية؛ حيث إن المسيحية إنما ترى أن الموت مآل الإثم، وأن الإثم شيء موروث، وأن جميع بني آدم آثمون، وأن المسيح قد خلّصهم من الإثم الموروث بتقديم الفداء. ولكن بولس لم يفكر هنا أن حنوك نال النجاة بدون المسيح وصار صالحًا، في حين أن المسيحيين، بل الحواريين أيضًا، لم يقدروا على النجاة من الموت رغم إيمانهم بالفداء والكفارة، وبتعبير آخر لم يستطيعوا أن يكونوا صالحين. فما دام المسيحيون لم يستطيعوا أن ينجوا من الموت رغم إيمانهم بالكفارة.. أي لم يتطهروا من الإثم، بينما نجا حنوك من الموت بدون الإيمان بالمسيح وصار صالحًا؛ فقد ثبت بذلك بكل جلاء أن نظرية الكفارة باطلة تمامًا.

ويرى بعض علماء الكتاب المقدس أن دانيآل المذكور في حزقيال ١٤: ١٤ إنما هو في الحقيقة حنوك أي إدريس. لقد ورد هنالك: "وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة نوحٌ ودانيآلُ وأيوبُ، فإنهم إنما يخلّصون أنفسهم ببرّهم، يقول السيّدُ الربُّ" (حزقيال ١٤: ١٤).

يقول حزقيال هنا إن الله تعالى يقول لي إن اليهود قد فسدوا الآن لدرجة أنه لو كان بينهم نوحٌ ودانيآلُ وأيوبُ أيضًا لم ينج الله اليهود من عذابه بسبب هؤلاء. وإنما نجا هؤلاء الأنبياء بأنفسهم فقط.

وقد علّق أحد علماء الكتاب المقدس واسمه Helevy، ومِن بعده عالم آخر اسمه Cheyne على هذه الكلمات وأثبتا أن ورود اسم دانيآل هنا تصحيف، إذ الصحيح هو حنوك أي إدريس (الموسوعة التوراتية: Enoch). ذلك لأن حزقيال كان قبل المسيح قرابة ستّة قرون أو ستة قرون إلا ربع، وهذا هو زمن دانيآل أيضًا. ولكن السياق يوضح أن الحديث هنا إنما هو عن الأنبياء القدامى، لذا يبدو أن اسم دانيآل ذُكر هنا خطأ، إذ المراد إنما هو حنوك في الحقيقة.

لا حاجة بنا للخوض فيما إذا كان رأْيُ هؤلاء العلماء صائبًا أم لا، إلا أن ذلك يدل على أن علماء اليهود والنصارى أنفسهم يعترفون بتسرب الأخطاء في العهد القديم عند كتابته. وهذا مثال واحد من الأمثلة الكثيرة.

كما ورد في موضع آخر في التوراة: "ها أنت أحكَمُ من دانيآل" (حزقيال ٢٨: ٣).

وهنا أيضًا يرى هؤلاء العلماء أن هذا الأمر خطأ، إذ الصحيح حنوك بدلاً من دانيآل.

فإذا كان هؤلاء العلماء مصيبين في استدلالهم، ويبدو أنهم كذلك، توصلنا إلى نتيجتين: أُولاهما أن حنوك كان مضرب الأمثال في الحكمة والورع عند أنبياء العهد القديم. وثانيتهما هي ما قد ذكرناه آنفًا أعني تسرب الأخطاء إلى التوراة عمدًا أو سهوًا بيد الكتّاب.

ذكر حنوك في الروايات اليهودية والمسيحية

لقد ورد في كتاب يهودي شهير Targum – وهو مجموعة أحاديث اليهود، كما عندنا "مشكاة المصابيح" – أن حنوك كان عبدًا بارًّا لله تعالى، وأنه تعالى رفعه إلى السماء بعد أن منحه لقب "متاترن" (Metatron) أي العالم الكبير، و"سفرا ربه" (Safra Rabba).. أي عالم المعارف الدينية (الموسوعة اليهودية مجلد ٥: Enoch). فالسِّفْر

في العربية يعني الكتاب وجمعه الأسفار، فـ "سِفرا ربه" هو عالم المعارف الإلهية. أما "متاترن" فلم أتمكن من البحث بصدده غير أنه يعني عالم الدين على ما يبدو.

ولكن بعض المصادر اليهودية تقول أن حنوك انحرف عن طريق الصلاح في آخر عمره، فرفعه الله إلى السماء لكيلا يصير فاسقًا فتكون عاقبته وخيمة. كما قيل أيضًا أنه لم يُصعَد إلى السماء، بل مات بالطاعون (المرجع السابق).

وقد ورد في كتب اليهود أيضًا أن حنوك اخترع علم الكتابة والفلَك والحساب (الموسوعة اليهودية مجلد ٥ نقلا عن سِفر يوهاسين Sefer Yuhasin).

لقد وردت في كتب المسلمين أيضًا روايات بأن حنوك اخترع علم الكتابة والفَلك (قصص الأنبياء للنجار ص ٢٨)، ويبدو أنهم قد نقلوها عن اليهود.

كان اسم حنوك قد اندثر تقريبًا في التاريخ اليهودي البدائي، ولكنه صار يُذكَر في كتبهم ثانية بعد بضعة قرون حيث أخذوا فيما بعد ينشرون كتابًا باسم سِفر حنوك. وقد ورد في هذا السفر أن الله تعالى ترك الأرض بسبب ذنوب العباد، ورفَع حنوك إلى السماء، وجعله حافظًا على كنوز السماء، وسيدًا على الملائكة، ورئيسًا على حاشيته المقربين من حول العرش. فهو مطلع على الأسرار كلها، وأن الملائكة تسانده وتؤيده، وأنه وجهُ الله تعالى، وأنه يقوم بتنفيذ أوامر الله تعالى في الكون، ويعلّم المعارف الروحانية، ويأخذ الأرواح إلى مكان الراحة والسكينة، وأنه قد سُمّي أميرَ فمِ الله تعالى، وأميرَ التوراة، وأمير الحكمة، وأمير العقل، وأميرَ العظمة والجبروت. هو الذي نزل بالرسالة على موسى؛ وهذا يعني أنه مُنح المنصب الذي يتولاه جبرائيل.

وورد في سِفر حكالوت (Sefer hekalot)، أي تذكرة الأنبياء والأولياء، أن الرّبي إسماعيل لما صعد إلى السماء لقي في السماء السابعة حنوك (إدريس) الذي قد مُنح منصب متاترن. فحكى له حنوك قصة صعوده إلى السماء كالآتي:

بسبب الشر في الأرض الذي خلَقه شمهازائي (Shamazai) وعزائيل (Azael) رفَع الله تعالى حنوكَ إلى السماء، لكي يعلم أنه تعالى ليس بظالم.

علمًا أن عزائيل هذا يسمى في العربية عزازيل. والمراد من هذه الفقرة أن الشيطان لما نشر الشر والفساد في الأرض، وعصى الناس أوامر الله تعالى، رأى الله استياءَ حنوك من هذا الشر، فرفَعه إلى السماء، ومنحه هناك منصب متاترن، وفتح عليه أبواب الحكمة كلها، وجعله رئيس الملائكة، وحوَّل جسده المادي إلى جسم روحاني.

وهناك كتاب آخر زمنُ تأليفه متأخر عن المصدر المذكور أعلاه، ويسمى حي حنوك (Hayye Hanok)، ويمكن أن نسميه بالعربية "حياةُ حُنك"، أي حياة شخص لبيب خبير حنّكتْه التجارب. وقد ورد فيه أن حنوك كان راهبًا صالحًا. بعَثه نداء السماء إلى أهل الأرض، فأتى وعلّمهم التوبة. فاجتمع حوله تلاميذ كثيرون. وظل يزداد حكمةً ومعرفة حتى اختير ملكًا. لقد وطّد الأمنَ والسلام في الدنيا طيلة ٢٤٣ عامًا. ولكنه في آخر المطاف رغب في حياة الخلوة والخمول، فتخلى عن عرشه. ولكنه كان يظهَر لتعليم الناس من حين لآخر. وبعد برهة من الزمن أمره الله تعالى بمغادرة الأرض والعودة إلى السماء، وسُلّم إليه الحُكم على أبناء الله تعالى – وأبناء الله تعالى هم الملائكة عند اليهود– فصعد في السماء على صهوة حصان كما صعد إيليا النبي في السماء. واجتمع أناس كثيرون لكي يشاهدوا صعوده في السماء، متوسلين إليه أن يبقى بين ظهرانيهم ولا يذهب إلى السماء، ولكنه لم يستمع لهم وصعد في السماء.

وقد ورد في كتب بعض اليهود الآخرين أنه عندما نزل شرع موسى صار حنوك تابعًا له، وإن كان من قبل ملتزمًا فقط بالشرع الذي أتى به نوح والذي كان يشتمل على سبع وصايا فقط. (الموسوعة اليهودية مجلد ٥: Enoch).

إن هذه الرواية الأخيرة تشبه الطريفة التي ضمنها الشاعر الفارسي في بيته التالي:

چه خوش گفت أست سعدي در زليخا

ألا يا أيها الساقي أدِرْ كأسًا وناوِلْها

أي ما أروعَ ما قال الشاعر سعدي في بيت شعر لـه في كتاب لـه اسمه "زليخا": "ألا يا أيها الساقي أدِرْ كأسًا وناوِلْها". مع أن الكتاب "زليخا" ليس من تأليف الشاعر الفارسي سعدي، إنما هو من مصنفات الملا جامي. كما أن الأمر المذكور هنا لا هو من قول سعدي ولا الملا جامي، بل هو قول حافظ شيرازي (انظر ديوان حافظ المترجم ص ٢). وهذا ما حصل في هذه الرواية اليهودية أيضًا حيث قيل هنا أن حنوك كان تابعًا لشرع نوح عليه السلام، في حين كان نوح حفيدًا لحنوك.

أما ما ورد عن حنوك في المصادر المسيحية فقد سبق أن سجلتُ فقرة من رسالة العبرانيين. وقد ذُكر حنوك في مصدرين آخرين مسيحيين أيضًا يُعَدّان من الصحف السماوية عند المسيحيين. يقال أنهما قد أُلّفا قبل المسيح عليه السلام، ولكن لا أثر لهما إلا عند المسيحيين. وأحد هذين المصدرين هو "صحيفة حنوك" عند الكنيسة الحبشية، أما المصدر الثاني فهو الآخر يُعد "صحيفة حنوك" عند كنيسة Slavonic الروسية. والصحيفة الحبشية ليست سوى مجموعة روايات ناقصة، أما الصحيفة الروسية فهي كتاب مفصل. ويتضح من هاتين الصحيفتين أن حنوك كان يسير في الأرض وفي السماء مع ملائكة الله. ثم عاد إلى أقاربه وأخبرهم بما رآه في السماء، ثم رُفع إلى السماء وهو حي ليستقر هناك. لقد قام حنوك في رحلته إلى السماء بما يلي: ١- اطلع على أسرار السماوات والأرض. ٢- وكُشف عليه النواميس الطبيعية كلها. ٣- رأى أبناء الله - أي ملائكة الله - الذين كانوا قد عوقبوا على ارتكابهم الفاحشة مع بنات البشر. ٤- وشفع لهؤلاء الملائكة الذين كانوا يعاقَبون (الموسوعة اليهودية مجلد ٥: Enoch).

إن المصادر اليهودية والمسيحية كلتيهما تتحدثان عن كتاب حنوك على العموم، ولكن بدون تحديد كتاب معين. وقد بدأ العلماء المسيحيون في القرن الثالث الميلادي يفتون أن هذا الكتاب مختلق مزور، ثم بعد القرن التاسع من الميلاد لم يعد له من أثر في التراث المسيحي. غير أن أحد السيّاح باسم بروس (Bruce) عثر على نسختين من هذا الكتاب في أرض الحبشة في ١٧٧٣ م، وقد نُشرت له في القرن التاسع عشر طبعاتٌ عديدة. ويبدو من تاريخ هاتين النسختين أن الكتاب كان

باللغة العبرية أصلاً، فتُرجم إلى اليونانية، ثم إلى الحبشية، ثم إلى اللاتينية. ثم في عام ١٨٨٦-١٨٨٧ عثروا على أجزاء من النسخة اليونانية، وتمَّ طبعُها. ويُعَدّ هذا الكتاب مصدرًا هامًّا جدًّا في المصادر المسيحية، فهو يلقي الضوء على تاريخ الديانة اليهودية والأفكار اليهودية الدينية ما قبل المسيح عليه السلام. (الموسوعة اليهودية مجلد ٥: Enoch ص ١٧٨-١٧٩)

ويوجد ثمة كتاب باللغة السلافية أي الروسية باسم "أسرار حنوك". وهو لا يوجد إلا بهذه اللغة، وقد تمت الآن ترجمته إلى الألمانية والإنجليزية. ذُكرتْ فيه وقائع حياة حنوك بالتفصيل نسبيًّا، وبصورة مرتبة منسقة. وقد تم تأليفه أصلاً باللغة اليونانية، ثم نُقل إلى اللغة السلافية. ويبدو أن بعض أجزائها مترجمة من العبرية. ويرى العالم الشهير تشارلس (Charles) أن معظم هذا الكتاب يبدو من تأليف شخص واحد كان مصريًّا على الأغلب حيث تجد في الكتاب انعكاسًا للأفكار المصرية. ويرى العلماء أن هذا الكتاب قد صُنّف ما بين الخمسين والسبعين سنة قبل الميلاد. وقد وردت في هذا الكتاب فكرة جديدة بأن جهنم أيضًا توجد في السماء، وأنها في السماء الثالثة، وأن الملائكة الآثمين يُسكَنون في السماء الثانية (The Lost Books Of The Bible p. 83-84)

إن الوقائع المذكورة أعلاه عن حنوك تشبه وقائع عديد من الأنبياء، بل تشبه أحداث شتى الصالحين في مختلف الأمم مثل إلياس وحرقيول (Herccules) وجينيميد (Genymede) وسميرأميس (Semiramis) وزيسوثروس (Xisuthrus) والملك أناكوس (Annacus) (الموسوعة اليهودية مجلد ٥: Enoch). كما أنها تشبه أحوال الملك البابلي أيميدورانكي (Emmeduranki)، وهو السابع من الملوك البابليين الأوائل.

ويرى البعض أن حنوك هو في الواقع اسم إله الشمس، ثم بعد مرور الوقت اعتُبر اسم شخص لأن عمره، كما يقال، كان ٣٦٥ عامًا مثل السنة الشمسية التي تتكون من ٣٦٥ يومًا. (المرجع السابق).

إنه من المستغرب أن هؤلاء الكتاب المسيحيين اعتبروا حنوك إله الشمس بسبب عمره الذي كان ٣٦٥ عامًا، ولكنهم لم يفكروا أن الكتاب المقدس نفسه يعلن أن أبناء حنوك وبناته وأحفاده وحفيداته قد بلغوا من العمر ثمانية أو تسعة وحتى عشرة قرون. فبدلاً من أن يعتبروا هذا الشخص الحقيقي وجودًا خياليًّا بسبب عمره البالغ ٣٦٥ سنة، لم لا يقولون إن هؤلاء أشخاص حقيقيون ولكن أعمارهم خيالية خرافية؟

أما المصادر الإسلامية فقد ذُكر فيها حنوك باسم إدريس، كما بيّنّا من قبل. والحق أن معنى إدريس وحنوك واحد، ولذلك فإن قول المفسرين أنهما شخص واحد قول صائب تمامًا على ما يبدو. كما أن الإشارة التي قام بها القرآن الكريم إلى أحوال إدريس عليه السلام أيضًا تشبه هذا القول.

ورد في الحديث أن النبي ﷺ وجد في معراجه إدريس عليه السلام في السماء الرابعة (ابن كثير). كما تذكر التفاسير، نقلاً عما ورد في الإسرائيليات، أن إدريس عليه السلام صعد إلى السماء الرابعة بواسطة ملاك كان صديقًا له، وأن عزرائيل توفاه هنالك في السماء. ولكن بعض المفسرين الآخرين يرون أنه لم يُتوف. فقال مجاهد إن إدريس لم يمت، بل رُفع إلى السماء كما رُفع عيسى. وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه أن إدريس رُفع إلى السماء السادسة. وعن الحسن أنه أُخذ إلى الجنة. (المرجع السابق، وروح المعاني)

إن هذه الروايات كلها إسرائيليات، أعني ليس منها ما رُوي عن الرسول ﷺ، اللهم إلا الحديث الذي يذكر أنه ﷺ قد رأى في معراجه إدريس في السماء الرابعة. ففيما يتعلق بكتب الروايات الإسلامية فقد ذكر فيها المسلمون كثيرًا من الترهات الموجودة في الإسرائيليات، ولكن فيما يتعلق بالتراث الديني الإسلامي فإن ما ورد في الحديث إنما هو أن إدريس كان في السماء الرابعة. بينما اكتفى القرآن الكريم بقوله إن إدريس كان كثير الصدق ونبيًّا، وأن الله تعالى رفعه إلى مكان عليّ. والحق أن هذا هو كل ما يمكن أن يُعتبر حقًّا من أحوال حنوك، وهذا هو ما ينص عليه سفر التكوين أيضًا حيث ورد فيه أن إدريس كان يسير مع الله تعالى أي أنه كان

صالحًا، وأن الله تعالى أخذه إلى مقام عال، أي أنه مات ميتة حسنة، وأن الله تعالى قد بوّأه بعد الموت درجة رفيعة.

وأما ما يروى عن إدريس عليه السلام أنه قد جيء له بحصان من السماء، فركبه وصعد إلى السماء، فيُذكر مثلُه تمامًا في الروايات الشائعة بين المسلمين حول المعراج. إذ قد شاع بين المسلمين أن النبي ﷺ قد جيء له بدابة من السماء اسمها البراق، فركِبها وصعد في السماء (البخاري: بدء الخلق، باب ذكر الملائكة). والحق أن صعود النبي ﷺ هذا كان من قبيل الكشوف اللطيفة العالية. فالإنسان يمكن أن يصعد إلى السماوات بجسم نوراني، ويرى الله تعالى أيضًا. ولكن هذا الجسد المادي لا يصلح لهذه الأمور، فلا يذهب إلى السماوات العلا، ولا يتمكن من رؤية البارئ تعالى أيضًا. إن محبّي الخرافات يفسرون هذه الأمور الروحانية تفسيرًا ماديًّا، ويقولون أقوالاً سخيفة غير معقولة؛ مما يُضعف إيمان الناس، فيقعون في متاهات الاختلاف بين الدين والعلم. ليت هؤلاء أبقوا الحقيقة على حالها، و لم يجعلوا الدين لعبة ومهزلة!

سيرُ حنوك مع الله تعالى

أما ما ورد عن حنوك أنه كان يسير مع الله تعالى فقد وردت كلمات مماثلة في حق إسماعيل عليه السلام أيضًا حيث قيل: "وكان الله مع الغلام" (التكوين ٢١: ٢٠). والحق أن هذه الكلمات أقوى معنى من السير مع الله تعالى. ذلك أنها تعني أن الله تعالى كان مع إسماعيل كل حين سواء كان سائرًا أو قائمًا أو قاعدًا أو نائمًا. وهذا هو التشابه الذي بسببه قد ذكر القرآن الكريم إسماعيل وإدريس معًا. لقد ذُكر إدريس في القرآن مرتين: مرة في سورة الأنبياء حيث قال الله تعالى ﴿وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْل كلٌّ من الصابرين﴾(الآية: ٨٦)، ومرة أخرى هنا في سورة مريم، حيث قال الله تعالى ﴿واذْكُرْ في الكتاب إسماعيلَ إنه كان صادقَ الوعد وكان رسولاً نبيًّا * وكان يأمر أهلَه بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مَرضيًّا * واذْكُرْ في الكتاب إدريسَ إنه كان صِدّيقًا نبيًّا * ورفَعْناه مكانًا عليًّا﴾ (الآيات: ٥٥-٥٨).

فبما أنه قد وردت في صحف الله كلمات السير مع الله تعالى في حق هذين النبيين فإن القرآن الكريم أيضًا قد ذكرهما معًا في كل مرة.

وهنا يطرح سؤال نفسه وهو: إذا كان إسماعيل وإدريس يُذكران معًا لوجود هذا التشابه بينهما، فما الحكمة في لفت الأنظار إلى إدريس هنا في سياق الموضوع الذي هو قيد البحث. فإن الله تعالى يبين هنا أن زكريا دعا الله تعالى أن يرزقه بولد، فاستجاب له ربه ورزقه يحيى، الذي كان لا بد من بعثته قبل مجيء المسيح كإرهاص له. ثم ذكر الله تعالى المسيح الذي هو المقصود الحقيقي هنا، حيث بين الله تعالى أن عقائد العالم المسيحي حول المسيح خاطئة وباطلة تمامًا، فلم يكن المسيح إلهًا ولا ابن الإله، بل كان حلقة من السلسلة الموسوية. ثم نبّه الله تعالى إلى أن السلسلة الموسوية بدأت نتيجة دعاء إبراهيم؛ فكان الله تعالى قد قطع لإبراهيم وعدين: وعدًا يخص إسماعيل ونسله، وآخر يخص إسحاق ونسله. ومن أجل ذلك قد تحدث الله تعالى بعد ذكر المسيح عن إبراهيم أوّلاً فإسحاق ويعقوب فموسى وهارون؛ ليبين ﷻ أنه قد أنجز وعده مع إبراهيم الخاص برقي بني إسحاق، وقد انتهى تحقيقه عند المسيح. ثم بعد ذلك ذكر الله إسماعيل تنبيهًا لأتباع المسيح إلى وعد الله الخاص بإسماعيل أيضًا، إذ كيف يمكن لله الذي قد أنجز وعده مع بني إسحاق لهذه الفترة الطويلة أن لا يحقق الوعود الخاصة بإسماعيل، الذي كان عظيم الصلاح وصادق الوعد، ومرضي الأعمال عند ربه ﷻ. فكأن الله تعالى يقول كيف لا نفي بوعدنا لمن كان وفيًّا معنا لهذه الدرجة، وكيف يمكن أن تبطل وعودنا في حقه؟ فذكّرهم الله بوعده الخاص بإسماعيل حيث قال ﴿واذكرْ في الكتاب إسماعيل﴾.

ومن الملاحظ هنا أن الله تعالى لم يذكر هنا رسولنا الكريم ﷺ، ذلك لأنه مشمول في هذا الوعد الخاص بإسماعيل عليه السلام.

ولكن السؤال الذي نناقشه الآن هو لماذا ذكر الله تعالى إدريس بعد ذكر إسماعيل في هذا السياق؟ فما الحكمة في ذلك؟

ليكن معلومًا أن الفكرة التي تؤسَّس عليها ألوهية المسيح عليه السلام إنما هي صعوده في السماء، وصعوده في السماء أمر يتفق فيه معظم المسلمين مع النصارى للأسف الشديد، فهم الآخرون يقولون أن المسيح حي، وجالس في السماء. إن النصارى لا يستدلون على ألوهية المسيح بولادته من غير أب، بل بصعوده في السماء. فيوجد بينهم من يقولون، دون أن يروا في ذلك حرجًا، أن المسيح كان ابنًا ليوسف النجار، وحجتهم أن كون المسيح ابنًا لمريم إذا كان لا يتنافى مع ألوهيته، فكونُه ابنًا ليوسف النجار لا يقدح في ألوهيته شيئًا أيضًا. فثبت أن النصارى لا يؤسسون ألوهية المسيح على ولادته الغريبة وإنما على صعوده في السماء حيًّا. وهي فكرة لم تكن قد أُبطلت ودُحضت بعد، في حين أن الله تعالى قد رد هنا على جميع مطاعن المسيحيين الأخرى. ومن أجل ذلك قد ذكر الله تعالى هنا إدريس، لينبه أن الإنجيل كما ذكر صعود المسيح إلى السماء فقد ذكر صعود إدريس أو حنوك أيضًا إليها، بل بكلمات أروع وأقوى. فالكلمات التي وردت في حق المسيح عليه السلام إنما هي: "وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد إلى السماء" (لوقا ٢٤: ٥١). أما إدريس عليه السلام فقد ورد عنه أنه سار مع الله تعالى، "ولم يوجد لأن الله أخَذه"(التكوين ٥: ٢٤). فإذا أمكن اعتبار المسيح إلهًا أو ابن الإله بسبب صعوده في السماء فعلى العالم المسيحي أن يعترف بألوهية إدريس أيضًا، فهو الآخر قد أُصعد إلى السماء بحسب الكتاب المقدس.

إذًا فإن إدريس هو الشخص الوحيد الذي عن طريقه يتم الرد على الفكرة التي يبني عليها المسيحيون ألوهية المسيح عليه السلام ألا وهي صعوده في السماء حيًّا. وهذا أمر لا يسلم به الناس في حق أي من أنبياء الله السابقين، لا في حق زكريا ولا يحيى ولا إبراهيم ولا إسحاق ولا يعقوب، ولا موسى، ولا هارون، ولا إسماعيل عليهم السلام، إنما يسلمون به في حق إدريس فقط. ورواياتهم تؤكد صعوده في السماء بشكل أروع وأقوى مما صعد به المسيح في السماء. فلذلك قال الله تعالى هنا ﴿واذكُرْ في الكتاب إدريس إنه كان صدّيقًا نبيًّا * ورفعْناه مكانًا عليًّا﴾.. أي تزعمون أن المسيح صعد إلى السماء، وها نحن نقدم إزاء المسيح مثال إدريس الذي

كان أفضل منه بهذا الشأن، فإذا كان هذا الأمر يجعل المسيح شريكًا مع الله تعالى في ألوهيته في زعمكم، فإن إدريس أحق وأولى بأن يصير شريكًا مع الله تعالى.

وفي القرآن الكريم أيضًا لم يقل الله تعالى في المسيح عليه السلام إلا ﴿بل رفَعه اللهُ إليه﴾(النساء: ١٥٩)، بينما قال عن إدريس عليه السلام ﴿ورفعناه مكانًا عليًّا﴾. ثم إن حديث المعراج أيضًا يذكر أن النبي ﷺ قد رأى المسيح عليه السلام في السماء الثانية، بينما رأى إدريس عليه السلام في السماء الرابعة (دلائل النبوة للبيهقي مجلد ٢ باب الدليل على أن النبي ﷺ عُرج به إلى السماء).. وهذا يعني أن إدريس رُفع إلى مقام أعلى من المسيح أيضًا. فكأن الله تعالى يقول: إذا كنتم تؤلهون المسيح بناء على هذه الكلمات فلم لا تؤلهون إدريس إذن؟

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ٥٨

التفسير: هنا يذكر الله تعالى نتيجة البحث الذي سبق بيانه ويقول ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم مِن النبيين مِن ذرية آدمَ﴾.. أي بالرغم من كل النعم والصِّلات التي نزلت على زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس عليهم السلام، فإن هؤلاء كلهم لم يكونوا أكثر من بشر. لا شك أنهم كانوا أنبياء الله تعالى، ولكن لم يكن أحد منهم إلهًا أو ابن الإله أبدًا. فلو تدبرتم في أحداث حياة المسيح أو موسى أو إبراهيم أو غيرهم لوجدتم أنهم كانوا من ذرية آدم أو من أولاد الذين حملناهم مع نوح في السفينة أو من أولاد إبراهيم أو إسحاق. وهؤلاء الذين هديناهم واصطفيناهم إذا تُليت عليهم آيات الرحمن كانوا يخرّون ساجدين باكين، لأنهم كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو وحده ربهم.

وقال المفسرون هنا إن قوله تعالى ﴿مِن ذرية آدم﴾ إشارة إلى إدريس، وأن قوله تعالى ﴿وممن حملْنا مع نوح﴾ إشارة إلى إبراهيم وحده، وقولـه تعالى ﴿ومِن ذرية إبراهيم﴾ إشارة إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب. كما أنهم يرون أنه هناك محـذوفًا قبل قوله تعالى ﴿وإسرائيل﴾، والتقدير "ومِن ذرية إسرائيل" وفيه إشارة إلى موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى (القرطبي، وصفوة التفاسير). وكأن هذه الكلمات تضمنت قائمة الأنبياء المذكورين من قبل، حيث قيل إن هؤلاء كلهم كانوا عبـادًا لنا ﴿وممن هدينا واجتبينا﴾.

هنا ينشأ سؤال وهو: ما هو معطوف عليه لقوله تعالى ﴿وممن هدينا واجتبينا﴾؟ أرى أنه عطف على قوله تعالى ﴿مِن النبيين﴾.. أي أن أولئك النبيين كـانوا ممـن هدينا واجتبينا.

وقد يقال هنا: ألا يكون الأنبياء من أهل الهدى والاجتباء حتى يؤكد الله تعالى أنه هداهم واجتباهم؟ فما دام تعالى قد سماهم أنبياء فكونهم من المهديين والمجتـبين أمر مفهوم. فلماذا ذكر الله على حدة أنه هداهم واجتباهم؟

فاعلم أن الإنسان يوصف بصفة معينة دفعًا لإشكال معين عنه. ومـن الثابـت البيّن أن الأنبياء قد اتُّهموا في الديانتين اليهودية والمسيحية بالإثم والخطيئة عمومًـا. اقرأ الكتاب المقدس فستجد فيه أن اليهود قد رمَوا نوحًا عليه السلام بتهم بشعة، وعزوا إلى لوط عليه السلام أفعالاً نجسة، واعتبروا داود عليه السلام آثمًا، وعدّوا هارون عليه السلام عاصيًا. فما من نبي إلا وقد جعلوه من الخطاة الآثمين (التكوين ٩: ٢٤، و١٩: ٣١-٣٦). بل لقد ورد في الإنجيل أن المسيح قال: "جميعُ الذين أتوا قبلي هم سُرّاقٌ ولصوص" (يوحنا ١٠: ٨). فترى أن كلا الفريقين يعتبر أنبياء الله تعالى آثمين. فيعزو إليهم اليهـود الإثم تغطية لذنوبهم هم، وأما المسيحيون فيعدّون أنبياء الله من العصاة لكي يُثبتوا أن جميع هؤلاء كانوا آثمين فلا يمكن أن يكونوا سببًا لنجاة الآخرين، وإنما النجـاة في الإيمان بكفارة المسيح. فلكل واحد من الفريقين هدف محدد لتأثيم أنبياء الله تعالى. وردًّا على هذه الأفكار من الطرفين قال الله تعالى أن هؤلاء كانوا ﴿ممـن هـدينا واجتبينا﴾، مؤكدًا أن هؤلاء لم ينالوا من قبلنا هذا اللقب عن فراغ وعبثًا، بل كانوا

بالفعل ممن هداهم الله واصطفاهم. إنكم تتهمونهم بمعصية الله تعالى مع أنهم كلما تُليت عليهم آيات الله خروا لله ساجدين باكين.

فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

غَيًّا: الغيُّ: الضلالُ؛ الخيبُ؛ الانهماك في الجهل؛ الهلاك (الأقرب).

وورد في المفردات: "الغيُّ جهلٌ من اعتقاد فاسد."

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن أمم هؤلاء الأنبياء فسدوا رويدًا رويدًا حتى بلغ بهم الأمر أنهم لم يلتزموا بأداء الصلاة، أو أنهم فقدوا الرغبة في الدعاء، واتبعوا الشهوات.

واعلم أن من معاني الشهوة الزنا أيضًا، ولكنها لم ترد هنا بهذا المعنى، بل يعني أنهم اتبعوا الاجتهادات الخاطئة والتأويلات الباطلة التي فسروا بها كلام الله بحسب أهوائهم، فكان عاقبة أمرهم الضلال.

الحق أن الإنسان إذا لم يفسر كتاب الله بحسب ما ورد في الكتاب نفسه، ويفسره وفق اجتهاده، زلت قدمه إلى التأويلات الخاطئة تدريجيًّا، فيهلك في نهاية المطاف. ذلك أن ذلك الكتاب هو الذي فتح باب الهدى والنجاح والعلم والنجاة، ولكن المرء لو حاول أن يقحم في هذا الكتاب أمورًا جديدة بناء على يمليه عليه عقله واجتهاده لاشتبه هدي الله الموجود في الكتاب. وبما أنه يتبع أهواء نفسه فإن الدمار يحيط به ويهلكه.

ومن الانهماك في الجهل أن يتبع الإنسان ما لا صلة له بإصلاح الحالة الروحانية أو بقرب الله تعالى، وإنما يشتغل باستخراج الجديد من النكات والطرائف، فينحرف عن الحق والمعرفة أكثر فأكثر.

ذات مرة حضر أحد المشايخ إلى الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام، وقال له: لقد جئتك لأني أقوم بوعظ الناس، والوعظ يتطلب أمرين: المبكياتُ والمضحكاتُ.. أي ما يجعل الحضور يبكون ويضحكون. وبما أنك قد طالعت كتبًا كثيرة وضخمة، فأرجوك أن تدلني على كتاب يحتوي على المبكيات والمضحكات حتى أنتفع به في وعظي.

والإنسان يتبع مثل هذه الترهات والتوافه عندما يتردى. حينما لا يكون عند الناس عادة التدبر في كتاب الله تعالى يتجهون إلى غرائب القصص والأساطير، ثم يظنون أنها هي التفسير لكلام الله تعالى.

لقد وجدت بعض المفسرين القدامى قد ذكروا في تفاسيرهم من القصص الخرافية التافهة ما يدل بوضوح على أنهم لم يعتادوا التدبر في القرآن. فلم يكن لهم انهماك في الحكمة، بل انهماك في الجهل. فمثلاً إذا كتب أحد منهم أن للملاك عشرة أجنحة، فكّر غيره في إمكانية أن توجد رواية تقول أن للملاك خمسة عشر جناحًا. فإذا قال له بعض اليهود نعم هناك رواية بهذا المعنى، قال هذا في تفسيره ليس للملاك عشرة أجنحة، وإنما خمسة عشر جناحًا. ثم يطلع يهودي آخر بقوله إن للملاك مئة جناح، فيقول المفسر أن الملائكة لها مئة أجنحة (ابن كثير). ولكن المفسرين لا يكتفون بذلك أيضًا، بل يتنافسون بعد ذلك في البحث عن رواية تذكر أن للملائكة ألف جناح. فيلفق أحد اليهود رواية بهذا المعنى، فيفرح المفسر بأنه قد وجد أخيرًا رواية تقول أن للملائكة ألف جناح. ويشيد الناس بعلمه في غبطة وسرور قائلين: سبحان الله، إن شيخنا هذا علامة كبير إذ عثر على رواية تقول أن للملائكة ألف جناح. وهكذا فهم يبحثون عن ما هو لغو وخرافة تاركين الحقيقة، مع أن اللغو لا علاقة له بالدين، ولا بالإيمان، ولا بالله تعالى، إنما هو جهل وغباء.

ولو أن اليهود تدبروا في التوراة، ولو أن النصارى تدبروا في الإنجيل، فإنهم، رغم كون كتبهم محرفة، ما ارتكبوا هذه الحماقة. كذلك لو أن المسلمين تدبروا القرآن لما وقعوا في هذه الجهالة. ولكنهم تركوا التدبر في القرآن الكريم، كما ترك اليهود والنصارى التدبر في التوراة والإنجيل، فلم يتسبب كتاب الله تعالى في هدايتهم، بل وقعوا في الضلال.

لقد ذكر صاحب المفردات للغي تفسيرًا لطيفًا فقال: "الغيُّ جهلٌ مِن اعتقاد فاسد." أي أن الغي هو تلك الجهالة التي تنشأ حين يعزو الإنسان إلى كتاب الله تعالى ودينه عقائد خاطئة وروايات باطلة. ولو أن الناس أقاموا الصلاة، واهتموا بالدعاء والبكاء والإنابة إلى الله تعالى، ورجعوا لهدايتهم إلى وحي الله وكتابه بدلاً من أن يتبعوا اجتهاداتهم الخاطئة، لما لقوا هذا المصير. ولكنهم تركوا الأمرين كليهما فكان من المحتم أن يكون مآلهم الضلال والفشل والجهل والهلاك، كما حصل فعلاً.

الحق أن الكسل عن الصلاة يحرم الإنسان وصالَ الله تعالى ومعرفة صفاته، فيكون مآله الغي والضلال. إن قلة الدعاء تؤدي إلى الفشل. وأما اتباع الشهوات فيقلل رغبة المرء في العلم والبرهان ويزيده جهلاً وغباءً، واجتماع هذه الأشياء كلها يؤدي إلى الدمار.

ثم يقول الله تعالى ﴿إلا مَن تاب وآمنَ وعمِل صالحًا فأولئك يدخُلون الجنة ولا يُظلَمون شيئًا﴾. واعلم أن العمل الصالح لا يعني العمل الحسن، إنما يعني العمل الذي يتفق مع مقتضى الحال. فمثلا لو أن المرء بدأ يصلي وقت الجهاد فلا شك أنه يقوم بعمل حسن، ولكنه ليس بعمل صالح. ولو أن أحدًا بدأ يلقي الوعظ وقت الصلاة، فإنه عمل حسن، ولكنه ليس بعمل صالح. ولو أمسك المرء عن الطعام يوم العيد – أنا لا أقول إنه يصوم لأن الشيطان هو الذي يصوم يوم العيد – أو لم يهتم بالغسل والنظافة، فيمكننا أن نسميه زاهدًا في الدنيا، إلا أن عمله لن يُعَدّ عملاً صالحًا. ولذلك نجد أن القرآن الكريم لا يحث على العمل الحسن وإنما على العمل الصالح. فهو يأمرك بالصدقة وقت الصدقة، والصلاةِ وقت الصلاة، والجهادِ وقت

الجهاد، وذكرِ الله وقت الذكر، وحفظ السرِّ وقت السِّرّية. والذين يعملون بحسب مقتضى الحال يعدهم الله تعالى ويقول ﴿فأولئك يدخلون الجنةَ ولا يُظلَمون شيئًا﴾.

وما هي تلك الجنة؟ قال الله تعالى في وصفها ﴿جنّاتِ عدنٍ﴾. وبطبيعة الحال ليس المراد من ﴿عدنٍ﴾ هنا أرض عدن الواقعة في جنوب غربِ الجزيرة العربية، بل المعنى أن تلك الجنات جنات خلود ودوام. ذلك أن لفظ العدن يعني الدوام والخلود، حيث ورد في القاموس: عدَن بالمكان: أقام به؛ وأقام البلدَ: توطَّنَه، وقيل منه ﴿جنّاتِ عدنٍ﴾ أي جناتُ إقامة لمكان الخلود (الأقرب).

والمراد من قولِ الله تعالى ﴿التي وعَد الرحمنُ عبادَه بالغيب﴾ أنه قد وعدهم بهذه الجنات حينَ لم تكن مرئية لهم، أي حين لم تكن هناك أية آثار لحصولهم على هذه الجنات، ومع ذلك قد حصلوا عليها. وهذه الجنات قد نالها المسلمون في هذه الدنيا، كما قد وعدهم الله تعالى بها في الآخرة أيضًا. وحيث إنهم قد نالوها في الدنيا رغم استحالة حصولهم عليها في الظاهر، فهذا برهان على أن ما يدعي به محمد رسول الله ﷺ إنما يدعيه بناء على أمر الله تعالى، وأن الوعد الثاني أيضًا سيتحقق حتمًا كما تحقق الوعد الأول.

كما يمكن أن يراد بقوله تعالى ﴿بالغيب﴾ أن الله الرحمن قد وعدهم بهذه الجنات نتيجة إيمانهم بالغيب. بمعنى أنهم لم يروا الله تعالى، ولكنهم لما سمعوا البراهين على وجوده آمنوا به. إنهم لم يشاهدوا الملائكة، ولكنهم لما سمعوا الأدلة على وجودها صدقوا بها. إنهم لم يجربوا الحياة بعد الموت، ولكنهم عندما سمعوا الدلائل على وجودها آمنوا بها وأيقنوا أن هناك حياة بعد الموت. إنهم لم يروا الجنات، ولكن لما قال الله لهم آمنوا بالجنة صدّقوا بها. لذلك يقول الله تعالى فبما أنهم قد ضربوا أروع مثال للإيمان بالغيب، فصدقوا بهذه الأشياء الغائبة الخفية عن أنظارهم ابتغاءَ مرضاتنا وتصديقًا لقولنا، فسندخلهم في جنات غيبية أي جنات تفوق تصوراتهم.

ثم يقول الله تعالى ﴿إنه كان وعدُه مأْتيًّا﴾.. والمأتي ما يؤتاه ويُحضَر إليه، المراد أنهم سيُؤتى بهم إلى تلك الجنات وكأنهم سيُعطونها جبرًا وقسرًا.. بمعنى أن هؤلاء لا يتمنون أي جنة وإنما يريدون وصال الله تعالى، ولكن بما أن الله تعالى قد وعدهم

بالجنات فسيقال لهم لا بد لكم من أن تدخلوها أيضًا. فكأن ما وُعدوا سيؤتى به، فيُدخَلون الجنات.

إن هذا الكلام يدل على كمال الإحسان، حيث يخبر الله تعالى أنه لن يكون بوسعهم أن يرفضوا عرضنا هذا.

لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٣﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٤﴾

التفسير: يمكن أن تكون كلمة ﴿إلا سلامًا﴾ في قوله تعالى ﴿لا يسمعون فيها لغوًا إلا سلامًا﴾ استثناء متصلاً، وقد يكون استثناء منقطعًا. فإذا كان استثناء متصلاً فالمعنى أنه إذا كان في الجنة شيء من فضول الكلام مما لا يُعتدّ به فأيضًا يكون سلامًا. ذلك أن اللغو يعني ما لا يُعتد به (المفردات). فمثلاً لو بيّنتَ شيئًا في دقيقتين في حين أنك تستطيع بيانه في دقيقة واحدة، فالكلام الزائد الذي استغرق دقيقة زائدة يُعَدّ لغوًا. فلقد وجدتُ أن بعض الناس يأتي لمقابلتي، فيبدأ في بيان قصة كلها لغو ولا علاقة له مطلقًا بغايته الأساسية. فيقول مثلاً هناك صديق حميم لي في مدينة "دلهي"، وذهبت لزيارته قبل أيام، وقد دار بيننا كذا وكذا من الأمور. ثم حصل الشجار بيني وبين فلان، فاضطررتُ للمجيء إلى مدينة لاهور، وقابلت هناك فلانًا وفلانًا. ثم جئتُ هنا لبعض حاجاتي، ففكرت أن أزور حضرتكم أيضًا. وهكذا يحكي قصة طويلة لا علاقة لها بقصده الحقيقي. فثبت بذلك أن المرء يتكلم بكلام زائد حتى في حديثه عن بعض الأمور الهامة أيضًا. ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿لا يسمعون فيها لغوًا﴾.

وقد يقول هنا قائل: لنفترض أن أحدًا يتحدث في الجنة بكلام لغو، فماذا إذًا؟ وردًّا على هذا الافتراض قال الله تعالى ﴿إلا سلامًا﴾.. أي لو سلّمنا جدلاً أن أحدًا سيتفوه في الجنات بلغوٍ من الكلام فلن يكون حتى لغوه شرًّا بل يكون سلامًا

وخيرًا. وبتعبير آخر، أنه إذا خرج من فم أحد في الجنة كلام زائد فلن يكـــون إلا كلمة سلام فقط.

أما إذا كان الاستثناء هنا منقطعًا فالمعنى أنه لن يقترب من أهل الجنة اللغو أبدًا، بل سيتكلمون في كل مكان بما فيه سلام، لأنهم يكونون عند الله الذي هو السلام، وفي دار هي السلام، وبين الملائكة الذين يقولون لهم سلامًا سلامًا.

وثمة أمر آخر قد نبّهتْ إليه هذه الآية، وهو أن الله تعالى لا يقول هنا أنهـــم في الجنة لن يأتوا اللغو من الأعمال، إنما يقول إنهم لن يسمعوا اللغو من الكلام. ذلك لأن الإنسان يحسن الظن حين يخص الأمر بنفسه، أما فيما يتعلق بـــالآخرين فإنـــه توّاقٌ إلى سماع عيوبهم وإشاعتها. ولكن الله تعالى يخبر هنا أن أهل الجنة سيتبوءون من الصلاح والتقوى درجة بحيث لن يسيء أحد الظن بغيره. والمكـــان الـــذي لا يحتمل الواحد من سكانه أن يسمع شيئًا من الكلام السيئ عن غيره لا بد أن يكون مقامًا عاليًا في الصلاح والخير.

أما قول الله تعالى ﴿ولهم رزقُهم فيها بُكرةً وعشيًّا﴾، فقد قال البعض أن معناه أن أهل الجنة لن يُعطَوا إلا وجبتين: وجبة في الصباح وأخرى في المســـاء، لأن الله تعالى قد نهى عن الإسراف! ولكن هذا غلط، لأن البكرة والعشي لها مفهوم أوسع من ذلك، إذ لا يعني لفظ البكرة الصباح فحسب، بل يعني أول النهار أيضًا (لسان العرب). كما أن العشي لا يعني المساء فقط، بل يعني أيضًا ما بين زوال الشـــمس إلى الصباح (الأقرب). فالمعنى أنهم سيُعطَون رزقهم كل حين.

وقد يقول هنا قائل: كيف يمكن أن يأكل المرء في كل وقـــت؟ والجـــواب أن الرزق يعني الشيء الموهوب، وذلك الشيء الذي يُعطَونه في الجنة كل حـــين هـــو رؤية الله وكلامه، وهما ليس مما يصيب المرء بالتخمة.

ثم يجب أن يؤخذ في الحسبان أن الله تعالى لم يقل هنا "ولهم الرزق"، بل قـــال تعالى ﴿ولهم رزقُهم﴾.. أي أنهم يُعطَون رزقًا ملائمًا لهم. فثبت أن الرزق لا يعـــني هنا الطعام فقط، بل رزقًا يناسب حالهم، ولن يعطوه صباحًا ومساء، بل سيُمَدّون به كل حين وآن.

ثم قال ﴿تلك الجنة التي نُورثُ مِن عبادنا مَن كان تقيًّا﴾.. أي أن تلك هي الجنة التي سنجعل عبادنا المتقين وَرَثةً لها.

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

التفسير: يقول المفسرون في شأن نزول هذه الآية أن النبي ﷺ سُئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، فوعد بالإجابة عن قريب، ولكن جبريل تأخر عنه بالوحي، فوقع ﷺ في ابتلاء كبير. ولما نزل جبريل بعد فترة، اشتكى إليه النبي ﷺ وقال: يا صاحِ، لم احتبستَ عني؟ قال: إنما نأتي حين يأمرنا ربك، ولا نأتيك حين لا يأمرنا (روح المعاني).

بغض النظر عن صحة هذه الرواية أو خطئها، فهناك سؤال يطرح نفسه: ما هي علاقة هذا الحادث بالسياق؟ فالله تعالى يبين هنا أن عيسى كان عبدًا مقربًا لنا، ولكنه لم يكن إلهًا ولا ابن إله. لقد خلا من قبله كثير من الرسل الذين كانوا مثله. ثم إنه لم يكن إلا حلقة من السلسلة الروحانية التي بدأت في نسل إسحاق. فكيف يمكنكم، أيها المسيحيون، أن تعتبروه آخر مخلّص ظهر في الدنيا؟ إن زعمكم يعني أن جميع الوعود التي قطع الله تعالى في حق إسماعيل كانت باطلة. ثم يوضح الله تعالى أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس كلهم كانوا من عبادنا المصطفين الأخيار، وكانوا بحاجة إلى جناتنا. وكان عيسى أيضًا بحاجة إلى جنتنا.

وفي هذا السياق يزعم المفسرون أن الملائكة قالت للنبي ﷺ إنما نتنزل بأمر الله تعالى، فإذا لم يأمرنا بالنزول فما ذنبنا في ذلك؟ ولكن هذا المعنى لا ينسجم مع السياق مطلقًا. والحق أن هؤلاء المفسرين لو تدبروا القرآن الكريم، واستعانوا بالله تعالى بالدعاء، و لم يتأثروا بالقصص التافهة، لهداهم الله إلى الحقيقة، وحماهم من

هذه الأخطاء الفادحة. ولكن المشكلة أنهم بدلاً من أن يتدبروا في القرآن اختاروا القصص والأساطير، فضلُّوا عن الحقيقة ضلالاً بعيدًا.

إنني لما أردت إلقاء الدرس في تفسير سورة الكهف، تدبرت فيها، ففهمت موضوع السورة كلها إلا آية واحدة منها. فأمعنت النظر فيها طويلاً، ولكن ظل الإشكال كما هو، وفشلت في فهم ارتباطها بالسياق. وأخيرًا بدأت في إلقاء الدرس، وكلما اقتربت من تلك الآية ازددت قلقًا وقلت في نفسي ماذا سأقول حولها. حتى إذا بقيتْ دونها آيتان أو ثلاث بلغ بي الخوف الذروة. ولكني ما إن وصلتُ إلى الآية التي قبلها حتى بدا لي أن تلك الآية قد صارت لي جلية المعنى، و لم يبق هناك غموض فيها ولا إشكال.

فالحق أن المرء لو أخذ في الحسبان ترتيب القرآن، وتعوَّدَ على التدبر والإمعان فيه، لانحلت له كثير من الإشكالات تلقائيًّا. أما الذي يتتبع القصص والأساطير، تاركًا التدبر في القرآن الكريم، فيَضلّ وينحرف، كما يعزو إلى الله تعالى ما يتنافى مع عظمته ﷻ.

وأبين لكم الآن كيف أن مفهوم هذه الآية سهل الفهم بسيط، ولكن المفسرين جعلوه لا ينسجم مع السياق مطلقًا. لقد قال الله تعالى في الآية السابقة ﴿لا يسمعون فيها لغوًا إلا سلامًا﴾.. أي أن اللغو لن يقترب من أهل الجنة أبدًا، وإنما يجدون السلام في كل مكان. والجميع يعرف أن المراد من السلام هو السلام عليكم. فالآية تعني أن أهل الجنة سيتلقون السلام بكثرة، ولكن لم يوضَّح هنا من ذا الذي سيبعث لهم هذا السلام.

وعندما نرجع إلى القرآن الكريم نجد هذا الأمر مشروحًا في مواضع أخرى منه. قال الله تعالى عن أهل الجنة ﴿ويُلقَّون فيها تحيَّةً وسلامًا﴾(الفرقان: ٧٦). فهذه الآية تذكر الموضوع السابق نفسه ولكن بأسلوب آخر.

وقد قال الله تعالى عن أهل الجنة في موضع آخر ﴿والملائكة يدخُلون عليهم مِن كل باب * سلامٌ عليكم بما صبرتم﴾(الرعد: ٢٤-٢٥). وهنا علمنا أن ملائكة الله هم الذين سيحضرون أصحاب الجنة ويبلّغونهم هذا السلام.

ولكن الله تعالى يذكر في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها أمرًا زائدًا حيث يقول الله ﴿تلك الجنة التي نُورِث من عبادنا مَن كان تقيًّا﴾. ومن الواضح أن الذي يرث هو الابن لا غير. فالحق أن الله تعالى قد اعتبر هنا كل عبد تقي ابنًا له تعالى. إن الجنة بيت لله تعالى، وسيُنزِل فيه عباده المؤمنين المتقين، ولكنه تعالى يوضح أننا لن ندخل عبدنا المؤمن التقي في الجنة كضيف أو صديق أو سائل، وإنما ننزله في الجنة بصفة ابن لنا ونورثه إياها، ونقول له اذهبْ وعِشْ خالدًا فيها.

وقد حقق الله بذلك غرضين: فأولاً إنه تعالى قد أبطل بذلك الزعم القائل أن خصوصية المسيح أنه ابن لله تعالى، حيث أوضح تعالى أن كل مؤمن تقي ابنٌ لله تعالى. وثانيًا، قد أشار الله تعالى بذلك أن المؤمنين سيُعطَون نعيم الجنة كحق لهم تكريمًا لهم. ذلك أنه فيما يتعلق بالعطاء فإن السائل الفقير أيضًا يتلقى عطاء ولكنه يكون صدقة، ولكن نعيم الجنة لن يكون صدقة على أهلها، إنما يكون ميراثًا لهم، وسيُقال لهم حين يُعطَونه أن هذا حقكم كحق الولد في مال والده. بيد أن هناك فرقًا واضحًا وهو أنهم سيرثون هذا الميراث وأبوهم حيٌّ.

والآن فبما أن الله تعالى قد اعتبر بقوله ﴿نُورِث﴾ كلَّ مؤمن ابنًا له ﷻ وأخبر أن الجنةَ عطاء ميراث، وأخبر أن أهل الجنة سيتلقون فيها سلامًا، فكان طبيعيًا أن يفكر كل مؤمن أنني ما دُمتُ قد أصبحت ابنًا لله تعالى فكان ينبغي أن أتلقى هدية السلام هذه من الله الذي هو أبي! فجاء الجواب على هذا السؤال الطبيعي على لسان الملائكة الذين قاموا بتبليغ هذا السلام لهم في قول الله تعالى ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك﴾.. أي أيها المؤمن إنما نهديك هذا السلام من عند الله تعالى، وليس من تلقاء أنفسنا. لا شك أننا نحن الذين نوصل السلام إلى أهل الجنة، ولكنه في الواقع من عند ربك، إذ من المحال أن نفعل شيئًا من عند أنفسنا، ولسنا إلا مبلِّغين.

هذا هو المراد هنا. ولا مجال هنا لما يذكره المفسرون بأن جبريل توقف عن النزول على النبي ﷺ فترة من الزمن، فأصابه ﷺ حزن شديد، فنزلت هذه الآية. ذلك لأن هذا المفهوم غير منسجم مع السياق كما بينتُ. إن المفهوم الحقيقي إنما هو أن الملائكة ينزلون على أهل الجنة بالسلام، فيقول هؤلاء في أنفسهم: ما

هذا السلام؟ هل هو من أبينا الروحاني ﷻ أم من غيره؟ فيجيبهم الملائكة إنه من أبيكم، ولسنا إلا مبلغين.

ثم يقولون ﴿له ما بين أيدينا وما خلفَنا وما بين ذلك﴾.. أي أنها هدية غالية لدرجة أنه تعالى قد بعث معنا حرسًا يحفظونها مِن أمامها ومن خلفها حتى لا تضيع.

ثم يقولون ﴿وما كان ربك نسيًّا﴾.. أي كيف يمكن أن يُنزل الله في بيته أولاده الروحانيين، ثم ينسى أن يُهدي لهم السلام. فكما أنكم أحببتم الله تعالى و لم تنسوه، فإنه تعالى أيضًا لم ينسكم، بل بعثَنا لكي نهدي لكم منه سلامًا.

غير أن هذه الآية تتضمن الإشارة إلى أمر آخر أيضًا، وإليك بيانه. إن سورة مريم تحتوي على ذكر إبراهيم وغيره من الأنبياء الذين كانوا من نسله بمن فيهم موسى، الذي يحوي كتابه، بالإضافة إلى وحيه، أحوال إبراهيم وأولاده. فلما أعلن النبي ﷺ دعواه قال اليهود والنصارى كيف أتى هذا النبي من العرب؟ يجب أن يأتي النبي من بني إسرائيل (أولاد يعقوب). فرد الله على أهل الكتاب بلسان الملائكة إنما نتنزل بأمر ربنا. إنه تعالى بعثنا برسالته إلى العرب فذهبنا بها إليهم. ولو أنه بعثنا إلى بني إسرائيل لذهبنا إليهم. فعَلامَ الاعتراض؟ يمكن أن يقال إن هذا الشخص لا تتوافر فيه صفات الأنبياء، ولكن لا يحق لأحد أن يقول كيف نزل كلام الله على شخص من العرب، لأن الوحي إنما ينزل بأمر الله تعالى، وأن الذين يصيرون مهبطًا لوحي الله تعالى يُعطَون جنة الدنيا وجنة الآخرة. فقد أُعطي موسى أرض كنعان، وأما محمد رسول الله ﷺ فقد أُعطي الجزيرة العربية، وفلسطين والدنيا كلها أيضًا.

ثم ورد ﴿وما كان ربك نسيًّا﴾.. أي أن الله تعالى كان قد نبّأ على لسان موسى أنه سيبعث نبيًّا من بين إخوة بني إسرائيل أي بني إسماعيل، كما أخبر على لسان النبي إشعياء أنه سيُنزل وحيه بين العرب أيضًا؛ فكيف يمكن أن يبطل وعد الله الذي تم على لسان اثنين من أنبيائه. إذا كان اليهود والنصارى قد نسوا ذلك فإن الله تعالى لا ينسى أبدًا. فأنَّى لله تعالى أن ينسى ما أوحى به إلى موسى فقال: "أقيم

لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلَك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلّمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه" (التثنية ١٨ : ١٨-١٩). وكيف يمكن أن ينسى الله تعالى ما أوحى به إلى إشعياء النبي بأن الوحي سينزل على العرب أيضًا (إشعياء ٢١: ١٣-١٧، و٩: ٦-٧). ومن المحال أيضًا أن ينسى الله تعالى وحيه الذي أنزله على عيسى، فقال بناءً عليه للحواريين: "إن لي أمورًا كثيرةً أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روحُ الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كلُّ ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية" (يوحنا ١٦: ١٢-١٣). فكان لا بد من ظهور ذلك النبي الذي يعلّم العالَمَ الأسرار الروحانية كلها.

رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥

التفسير: يقال: اصطبرَ على الشيء، أي تمسَّكَ به بشجاعة وجلد. غير أن الله تعالى لا يقول هنا "اصطبِرْ على عبادته"، بل يقول ﴿واصطبِرْ لعبادته﴾، ومعناه عليك أن تبدي الشجاعة والجلد من أجل عبادته ﷻ. وهكذا قد بين الله تعالى لرسوله بقوله ﴿فاعبُدْه واصطبِرْ لعبادته﴾ أن القوم لن يسمحوا لك بأن تعبد الله عبادة خالصة، فلا تكترث لهم، بل عليك التحلي بالشجاعة والجلد بهذا الصدد. ثم قال تعالى ﴿لعبادته﴾.. أي يجب أن تتحلى بهذه المزايا من أجل العبادة فقط. ذلك لأن الإنسان يمكن أن يقوم بالعبادة لأسباب أخرى أيضًا، لذلك يأمرنا الله تعالى أن نبدي الشجاعة من أجل العبادة، ونتحلى بالجلد من أجل العبادة، ونتصف بالثبات من أجل العبادة. فكأنه تعالى يريد منا أن لا نحب العبادة لمآرب أخرى، وإنما نحب الأشياء الأخرى حبًّا للعبادة، فلا تكون العبادة سببًا بل تصبح هدفًا وغاية.

فقوله تعالى ﴿واصطبِرْ لعبادته﴾ يعني أن عليك أن تتحلى بالبسالة والشجاعة حبًّا للعبادة، وليس لكي تبقى قائمًا على العبادة. عليك أن تتصف بالبسالة حبًّا

لعبادته ﷻ، وتتشجع حبًّا لها، وتبدي الثبات حبًّا لها، حتى تكون عبادتك أفضل وأعلى درجة، وحتى لا تكون عبادتك سببًا، بل تصبح غاية وهدفًا.

أما قوله تعالى ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ فقد أشار به إلى أن الله تعالى سيكشف الآن عمليًّا أنه رب العالمين وليس برب بني إسرائيل فقط.

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٧﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٨﴾

التفسير: لقد ظلت الحياة بعد الموت على مر العصور موضع شك وشبهة لدى الناس، أيًا كان شعبهم أو ديانتهم. ذلك لأن تلك الحياة لا تُرى، كما لا تبقى بالناس أي صلة بالموتى إلا الذين يكونون من الطراز الأول من الروحانيين. ولكن الغريب أن تلك الحياة التي يشك فيها أكثرَ من أي شيء آخر، فإنها هي أكثر ما يوقن به الناس، حيث يوزعون الطعام والثياب على الفقراء باسم موتاهم، كما يتمنون زيارتهم أيضًا. إذا نظرتَ إلى سلوك الناس وجدتهم لا يوقنون بالحياة بعد الموت، حيث لا تجد في تصرفاتهم أي أثر للإيمان بالحياة بعد الموت، مع أن المرء إذا كان مؤمنًا حقًّا بالمثول أمام الله تعالى بعد الموت ليحاسبه على أعماله للزم أن يؤثّر هذا الإيمانُ في حياته ويُصلِح أعماله، ويطهّر أفكاره. فبالرغم أنك لا تجد لإيمانه أي تأثير على حياته، إلا أنك تجده يقوم بكثير من الأعمال الخيرية إيصالاً لثوابها إلى أقاربه الموتى، فيُطعم الفقراءَ الطعام، ويوزع عليهم الثياب باسم هؤلاء الأموات. إنه تناقض غريب نراه في عمل الإنسان. وبسبب هذه الحالة المريبة في عمله لا نستطيع أن نجزم فيما إذا كان غير موقن بالحياة بعد الموت، أم أنه موقن بها. فإننا حين ننظر إلى حياته هو لا نجد في أعماله وتصرفاته تأثير الإيمان بالحياة بعد الموت كما ينبغي، ولكننا حين ننظر إلى مشاعره تجاه أقاربه الموتى نجد في قلبه لوعة ولهفة لأن يكونوا أحياء حتى يلقاهم.

فهناك فئة من الناس تقول أن لا حياة لنا بعد الموت، وثمة فئة أخرى تؤمن بالحياة بعد الموت. ولكن الذين يؤمنون بالحياة بعد الموت ترى في تصرفاتهم أيضًا ما يوهم أنهم غير مؤمنين بالحياة بعد الموت. أما الذين يقولون أنهم لا حياة لهم بعد الموت ترى في تصرفاتهم أحيانًا ما يدل على أنهم مؤمنون بتلك الحياة. وكأن الذين يقولون "نَعَمْ" يأتي عليهم زمنُ "لا"، وأما الذين يقولون "لا" فيأتي عليهم زمنُ "نعم". وعلى العموم فإن الإنسان ليس بجاهز، فيما يخص حياته هو، أن يصوغ أعماله وتصرفاته وفق إيمانه بالحياة بعد الموت، ولكن فيما يتعلق بإعرابه عن مشاعره تجاه أقاربه الموتى فإنه جاهز لأن يضحي من أجلهم. وذلك لأن التضحية التي يقدمها من أجلهم ليست كبيرة ولا ثقيلة، إذ لا تكلّفه إلا إخراج بعض المال وتوزيع بعض الطعام والثياب على ذوي الحاجة صدقةً عن أقاربه الموتى. وأما أن يُحدث تغييرًا طيبًا في حياته هو فهذا عبء ثقيل يصعب عليه حمله. إذ يعني ذلك أن يقول الصدق، ويتنكب عن الكذب والغش، ويقضي على أهواء النفس، ويطيع أوامر الله تعالى. وهذه الأمور كلها تتطلب منه تضحية جسيمة جدًّا، فلا يستعد لها. ولكنه جاهز لأن يوزع بعض الطعام والثياب لأنه سهل نسبيًّا.

وترى أن الإنسان المشار إليه في قوله تعالى ﴿ويقول الإنسان أإذا ما متُّ لسوف أُخرَجُ حيًّا﴾ لم يقل الله عنه أيضًا أنه ينكر الحياة بعد الموت، وإنما أخبر أنه يقول ﴿أإذا ما متُّ لسوف أُخرَج حيًّا﴾.. أي أنه يسأل على طريق التعجب والاستفهام، بمعنى أنه ليس بموقن بأن لا حياة بعد الموت، ولكنه متردد وغير متيقن بها. وهذا يعني أنه في حالة من الشك والشبهة في أمر الآخرة، ولا يعني ذلك أنه غير موقن بالآخرة حتمًا.

لقد بدأتُ بهذه الكلمة التمهيدية لسبب معين، وهو أن النظر إلى عقائد أهل الدنيا يكشف لنا أن الذين ينكرون الحياة بعد الآخرة كليةً قليلون جدًّا، ولكن الذين يؤمنون بالآخرة بيقين كامل هم أيضًا قلة جدًّا. إن الأكثرية الساحقة من الناس، سواء أكانوا من المؤمنين بالحياة بعد الموت أم من غيرهم، يعيشون دائمًا مترددين في أمر الآخرة.

إن من عقائد المسيحيين أن الإنسان سينال حياة جديدة بعد الموت. وفي إحدى المرات قد جرى النقاش بين المسيح واليهود حول هذا الأمر. علمًا أن اليهود كانوا فئتين: فئة تؤمن بالحياة بعد الموت، وفئة تنكر ذلك. فجاء بعض اليهود المنكرين للآخرة المسيحَ وسألوه عنها، فأجابهم وقال: ألم تقرءوا في التوراة أن الرب إلهُ إبراهيم وإلهُ إسحاق وإلهُ يعقوب، "وليس هو إلهَ أمواتٍ بل إلهُ أحياءٍ لأن الجميع عنده أحياء" (لوقا٢٠: ٣٧-٣٨ ومتى ٢٢: ٣٢).. أي كانَ عليكم أن تدركوا مما ورد في التوراة أن أرواح إبراهيم وإسحاق ويعقوب تتمتع بالحياة، وكذلك أرواح آبائهم أيضًا، وإلا لوجب القول أن ربنا رب الأموات لا رب الأحياء.

كذلك يقول المسيح عليه السلام: "لأنهم في القيامة لا يزوِّجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء" (متى ٢٢: ٣٠).

ويقول بولس: "لأننا نعلم أنه إنْ نقض بيتُ خيمتنا الأرضي فلنا في السماوات بناءٌ من الله، بيتٌ غيرُ مصنوعٍ بَيَدٍ، أبديٌّ" (رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس ٥: ١).

ويذكّر المسيح عليه السلام الناس بالحياة بعد الموت في قصة فقير وغني ويقول: "كان إنسان غني، وكان يلبس الأرجوانَ والبزَّ، وهو يتنعم كل يوم مترفهًا. وكان مسكينٌ اسمه لعازر الذي طُرح عند بابه مضروبًا بالقروح، ويشتهي أن يشبَع من الفتات الساقط من مائدة الغني. بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحَه. فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم. ومات الغني أيضًا ودُفِن. فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب، ورأى إبراهيمَ من بعيد ولعازر في حضنه. فنادى وقال يا أبي إبراهيم ارحمني، وأرسل لعازر ليبلّ طرفَ أصبعه بماء، ويبرّد لساني، لأني معذَّب في هذا اللهيب. فقال إبراهيم يا ابني اذكُرْ أنك استوفيتَ خيراتك في حياتك، وكذلك لعازرُ البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوّة عظيمة قد أُثبتتْ حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا. فقال أسألك إذًا يا أبت أن ترسله إلى بيت أبي، لأن لي خمسةَ إخوة، حتى يشهد لهم لكي لا يأتوا هم أيضًا إلى موضع العذاب هذا. قال له إبراهيم: عندهم موسى والأنبياء، ليسمعوا منهم. فقال لا يا أبي إبراهيم، بل إذا

مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون. فقال له إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إنْ قام واحد من الأموات يُصَدِّقون" (لوقا ١٦: ١٩-٣١).

وورد في موضع آخر: "وسمعتُ صوتًا من السماء قائلا لي اكْتُبْ: طوبى للأموات الذين يموتون في الرب منذ الآن. نعمْ يقول الروح لكي يستريحوا من أتعابهم، وأعمالهم تَتْبَعهم" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ١٤: ١٣).

إذًا فإن المسيح عليه السلام قد أكد البعث بعد الموت، وأن الكتب المسيحية كلها مليئة بالاعتقاد بأن الإنسان سيوهب حياة جديدة بعد الموت. والفرق الوحيد هو أن المسيحيين يعتقدون أن الأرواح ستعود إلى هذه الدنيا نفسها عند عودة المسيح، وهنا ستنال الثواب أو العقاب. فقد ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام: "الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبِعتموني في التجديد متى جلَس ابنُ الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضًا على اثني عشر كرسيًّا تَدينون أسباطَ إسرائيل الاثني عشر. وكلُّ مَن ترَك بيوتًا أو إخوةً أو أخوات أو أبًا أو أمًّا أو امرأةً أو أولادًا أو حقولاً مِن أجل اسمي، يأخذ مئةَ ضعف، ويرثُ الحياة الأبدية" (متى ١٩: ٢٨-٢٩).

كما ورد في موضعٍ آخر: "ورأيتُ نفوسَ الذين قُتلوا مِن أجل شهادة يسوعَ ومِن أجل كلمة الله، والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته، ولم يقبَلوا السِّمَةَ على جباههم وعلى أيديهم، فعاشوا وملَكوا مع المسيح ألفَ سنة. وأما بقية الأموات فلم تَعِشْ حتى تتمّ الألفُ السنة. هذه هي القيامة الأولى" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢٠: ٤-٥).

فبالرغم من أن كل ديانة قد أكدت الحياة الأخروية، إلا أن أكثر ما ينكره الناس في هذا العصر هو البعث بعد الموت، وتسود قلوبهم حالة من الشك والتردد حول الحياة الآخرة. إذًا فلا يراد بلفظ ﴿الإنسان﴾ هنا الناس كلهم، إذ يوجد بينهم من يوقن بالحياة الآخرة يقينًا تامًّا، بل المراد منه ذلك الإنسان الذي يستغرب من الحياة الآخرة، ويقول هل يُحيَى الإنسان مرة أخرى حقًّا.

أما إذا كان ﴿الإنسان﴾ هنا بمعنى الجنس الإنساني كله، فالمراد أنه لمن المستغرب جدًّا أن يقول هذا الذي ينتمي إلى الجنس البشري هل أعود إلى الحياة ثانية. ذلك

لأن الإنسان مركب من الأُنس، ويعني في الواقع "أُنسان"، وفي فطرته ما يؤكد البعث بعد الموت، فكيف يمكنه أن يقول هل سأعود إلى الحياة ثانية حقًّا؟

ثم يقول الله تعالى ﴿أَوَ لا يذكُر الإنسان أنّا خلقْناه من قبلُ و لم يكُ شيئًا﴾.. والمراد من جملة ﴿و لم يكُ شيئًا﴾ أنه لم يكن شيئًا يستحق الذكر، بدليل قوله تعالى في موضع آخر ﴿هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا﴾(الإنسان: ٢٣).. أي عندما كان في حالة النطفة أو الجماد والنبات. بمعنى أنه كان عندها شيئًا، ولكنه لم يكن شيئًا مذكورًا.. أي شيئًا ذا بال يستحق الذكر والعناية. فإذا كان الله تعالى قد قام بتطوير ذلك الشيء الحقير الذليل وجعله إنسانًا، فما العجب في أن يخلق تعالى من هذا الإنسان، الذي يصير رفاتًا وترابًا بعد الموت، إنسانًا جديدًا.

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

جثيًّا: جثا الرجلُ يجثو: جلَس على رُكبتيه، أو قام على أطراف أصابعه، فهو جاث، وجمعه الجثيُّ (الأقرب).

أما صاحب المفردات فقال: قد يكون ﴿جثيًّا﴾ مصدرًا لـــ جثا يجثو.

التفسير: يتضح من هذه الآية أيضًا أن المقصود هنا الإنسان المذكور من قبل، وليس كل الناس. إذ لو كان المراد من الإنسان هنا المؤمنون من الطراز الأول والصديقون والشهداء والأنبياء، فلا داعي لذكر الشياطين الذين يوسوسون. فكلمة ﴿الشياطين﴾ تدل بجلاء على أن الإنسان هنا يعني قومًا لا يؤمنون بالحياة بعد الموت إيمانًا كاملاً... يقول الله تعالى إننا لا بد وأن نجمع هؤلاء مع الشياطين أي مع الفلاسفة الذين يوسوسون في قلوبهم حول الحياة بعد الممات، ﴿ثم لنُحضِرنّهم حول جهنمَ جثيًّا﴾.

يقول المفسرون بالإجماع أن "جهنم" كلمة أعجمية، وليس لها اشتقاق في العربية (الإتقان). ويرى علماء اللغات الأعجمية أنها كلمة آرامية وتعني "مكان العقاب بعد الموت". وفي اللغة العبرية تُستعمل كلمة "جِهَنَّهْ" (Gehenna) التي أصلها الآرامي هو "هِنُّوم" (Hinnom)، ثم حُوِّلت فيما بعد إلى "جِهِنُّوم" (Ge- Hinnom).

كما يرى هؤلاء العلماء أن "هنوم" جزء من كلمة كبيرة، ومعناه "وادي إراقة الدماء" أو "وادي القتل العام" (الموسوعة التوراتية مجلد ٢: Hinnom).

وعندي أن "جهنوم" كلمة عربية مشوهة. حيث يعني الهَنَمُ في العربية النمر، ولفظ "ذو هنم" يعني المكان الذي يوجد فيه النمور. وأرى أن أصل هذه الكلمة هو "ذُو هنم" أي المكان الذي تكثر فيه النمور التي تفترس الناس وتجرحهم. وبما أن العجم يبدلون الذال جيمًا بشكل عام، فجعل الآراميون من "ذي هنم" جهنوم، ثم أخذها العرب وحوّلوها جهنم. وهناك أمثلة كثيرة حيث انتقلت كلمة من لغة إلى أخرى، ثم صارت مشوهة، ثم رجعت إلى اللغة الأصلية بصورتها المشوهة، ثم صيغت بقالب جديد.

كما أرى أن لفظ "جهنم" ربما تكون مركبة من كلمتين من الثلاثي المجرد وهما "جهن" و"جهم"، حيث يعني الجهن الاقتراب، بينما يعني الجهم اللقاء بوجه عبوس (المنجد). فأصل جهنم هو جهنجهم" ومعناه شيء يذهب إليه المرء شوقًا، وعندما يقترب منه يعبس خوفًا واستياء. والحق أن هذا الاسم يرسم صورة جهنم رسمًا تامًّا، حيث يدل على أن المرء يستحسن الأفعال الفاسدة التي تؤدي به إلى جهنم، ولكنه حين يقترب من جهنم جراء تلك الأعمال يستاء ويعبس قائلاً إنه مكان بشع مخيف. وكأن جهنم سُمّيت بهذا الاسم تدليلاً على الحالة التي يكون فيها الإنسان عند رؤيته لها وكذلك على الأعمال التي يستحسنها المرء نظرًا إلى ظاهرها ولكنها هي التي تقرّبه من جهنم.

إن سيدنا المسيح الموعود عليه السلام أيضًا قد قام بتفسير كلمة قرآنية على هذا الغرار نفسه. فقال حضرته في كتابه "فلسفة تعاليم الإسلام" إن لفظ "الخنزير" مركب

من كلمتين هما "الخَنـــز" أي الفاسد جدًّا، و"أَرَى"؛ فيكون معنى الخنـــزير: "أراه فاسدًا جدًّا".. أي أن في هذا الحيوان خصالاً تدل على ما فيه من سوء وفساد (إسلامي أصول كي فلاسفي ص ٣٣٨).

وكما سبق في شرح الكلمات أن الجثيّ هو الجلوس على الرُكبتين كما نجلس في الصلاة عند التشهد، أو القيام على أصابع القدمين مثل من يقوم على أصابعه رافعًا كعبه، مادًّا عنقه إلى فوق لينظر إلى شيء. وكلا المعنيين ينطبق هنا. ذلك أن الحديث هنا عن جهنم، ومن فطرة الإنسان أنه إذا أحاط به خطبٌ حاول أولاً أن يصوب إليه نظره مطلا إليه واقفًا على أصابع قدميه ليعرف ما هي المصيبة القادمة. ولكنه حين يراها تخور قواه ويخر على ركبتيه.

ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

شيعة: الشيعة: الفِرقة (الأقرب).

ثُمَّ: حرفُ عطفٍ يدل على الترتيب والتراخي (الأقرب).

صليًّا: صَلِيَ النارَ وبها يصلَى صِلِيًّا: قاسى حرَّها واحترق بها ودخل فيها (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه قبل أن يُدخل الكفار في النار سيؤخذ من كل فرقة منهم رؤساؤهم الذين كانوا أكثر عصيانًا وتمردًا على الله الرحمن ليعذبهم عذابًا أشد.

علمًا أن "ثُمَّ" في قوله تعالى ﴿ثم لَنَنـــزعنّ مِن كلِّ شيعة أيُّهم أشدُّ على الرحمن عتيًّا﴾ هو لبيان ترتيب الأحداث، أما "ثم" الوارد في قوله ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليًّا﴾ فليس للترتيب بل للعطف فقط، أي شرحًا لما سبق ذكره وبيانًا لدرجة كفرهم، لأن "ثم" يفيد أيضًا بيان الزمان والمكان والوضع، والمراد أننا أدرى

بمدارج كفرهم، وبأماكن عذابهم، وليس معناه أن الله تعالى سيعلم درجة كفرهم ومكان عذابهم بعد أن ينـــزع منهم مَن هو أشد على الرحمن عتيًّا. ذلك أن علم الله تعالى أسبق زمنًا من فعله. والحق أن العلم أسبق زمنًا من الفعل بشكل عام، فإن الإنسان يفكر أولاً في الذهاب إلى مكان ما ثم يذهب إليها. فمثلاً تفكر أولاً في الذهاب إلى المدرسة ثم تذهب إليها عمليًّا. أو تفكر أولاً في الأكل ثم تأكل شيئًا. ولكن قد جاء "ثم" هنا قبل العلم، رغم أن العلم يكون قبل الفعل، فثبت من ذلك أن "ثم" يفيد هنا بيان الدرجة، أي أننا أعلم بدرجة العذاب الذي يستحق كل واحد منهم.

لقد قال المفسرون هنا إنه كان المفروض أن يقال (أيَّهم) بدلاً من ﴿أيُّهم﴾. وقال الخليل إنه مرفوع لكونه حكاية، إذ التقدير: "ثم لننـــزعنّ الذين يقال لهم أيُّهم أشدُّ على الرحمن عتيًّا". بينما قال الآخرون إن قوله تعالى ﴿من كل شيعة﴾، مفعول به لفعل ﴿لنَنـــزعَنّ﴾، وأما قوله تعالى ﴿أيهم أشد على الرحمن عتيًّا﴾ فهو كلام جديد، فإن السائل حين قال مَن هؤلاء الذين ينـــزعهم الله من كل شيعة، قيل له ﴿أيُّهم أشد على الرحمن عتيًّا﴾.

بينما قال البعض أنه قد ورد في قراءة ﴿أيَّهم﴾ أيضًا. (فتح البيان، والقرطبي)

أما قوله تعالى ﴿ثم لنحن أعلَمُ بالذين هم أَولى بها صليًّا﴾ فليكن معلومًا عن لفظ "صليًّا" أنه لا يعني الاحتراق بالنار فقط، بل يعني أيضًا مقاساة حرِّها، كما هو مذكور في شرح كلمات هذه الآية.

وقوله تعالى ﴿الذين هم أولى بها صليًّا﴾ يمكن أن يفسر بمفهومين: أولهما: الذين هم أولى الناس بالنار صليًّا، والثاني: الذين هم أولى بالنار صليًّا من بين أنواع العذاب الأخرى.

وهنا ينشأ سؤال وهو: من هم أولئك الناس الذين يكون هؤلاء أولى منهم بالنار صليًّا، أو ما هي أنواع العذاب الأخرى التي يكون هؤلاء أولى بالنار صليًّا منها؟

والجواب أن الحديث يدور هنا عن أصحاب عقيدة الثالوث، ويتضح من القرآن الكريم أن رقي أصحاب عقيدة الثالوث سيكون منوطًا بأجهزة نارية بشكل عام،

وأنهم سيخوّفون أعداءهم على العموم بالأسلحة النارية. فالبنادق والمدافع والقنابل، سواء العادية منها أو الذرية، كلها أسلحة نارية. بينما كانت أسلحة الناس من قبل السيوف والرماح والمقامع والمقاليع والأحجار. ولكن لما جاء زمن يأجوج ومأجوج استخدموا النار، فإن اسمهم نفسه يدل على النار، حيث إنه مشتق من الأجّ الذي يعني النار (الأقرب: كلمة "أجّ"). فكأن اسمهم هذا كان ينطوي على نبأ بأنهم سيستخدمون النار بكثرة، وسيتغلبون على العالم باستخدام الأسلحة النارية. وبالفعل فإن المسدس والبندقية والرشاش والقنبلة، بما فيها القنبلة النووية، كلها وثيقة الصلة بالنار، وهذه هي الوسيلة التي يتغلب بها هؤلاء على الأعداء. لقد هزموا المسلمين بهذه الأسلحة نفسها. إن المسلمين، لسوء حظهم، لم يستخدموا هذه الأسلحة لأن مشايخهم قاموا بتضليلهم، حيث أفتوا أنه لا يحق لأحد سوى الله تعالى أن يعاقِب بالنار، أو قالوا إنه سحر يقتلون به أناسًا كثيرين في لمح البصر، مع أن السلاح لا يقتل إلا شخصًا؛ وإذا تعلم أحد السحر صار قرينًا للشيطان. فاستعمال هذه المخترعات حرام. إذًا فالدمار الذي حل بالمسلمين إنما حل بسبب فتاوى المشايخ أو الأسلحة النارية التي استخدمها الشعوب الغربية ضدهم.

ومن أجل ذلك يقول الله تعالى إنه يوم يأتي عذابنا يكون هؤلاء القوم أَولى الناس بالنار صليًّا لكونهم أكثر الناس استخدامًا للنار. وعندي أنه لو جُمعت كل الأسلحة التي توجد عند الشعوب الأخرى مجتمعة لما بلغت مقدار الأسلحة التي تملكها أصغر حكومة من هذه الحكومات الغربية. فمثلاً إن ما تملكه كل من الهند وباكستان والصين من أسلحة لا تساوي كلها ما عند فرنسا وحدها من أسلحة. ولذلك يقول الله تعالى إن بلاد الغرب هذه لما كانت أسبق شعوب العالم لعبًا بالنار فسنذيقهم عذاب النار أكثر من أي شعب آخر، ويومئذ يدرك هؤلاء مَن كان أولى بالنار، هم أم غيرهم؟

والمفهوم الثاني هو أنهم أولى بالنار صليًّا من أي عذاب آخر. ذلك أن العذاب صنوف وألوان، فمثلاً يمكن أن يكون العذاب بالماء أو المرض أو البرد القارس أو المشاهد المخيفة. ولكن بما أن هؤلاء القوم قد صبّوا على الشعوب الأخرى عذاب

النار صبًّا فسيكون عذاب النار هو الأولى بهم من أي عقاب آخر؛ بمعنى أنهم سيعذَّبون بعذاب فيه الحرقة واللوعة والنار. وهذا يكشف أن العذاب المقدر لهم هو عذاب اللوعة والحرقة.

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٣﴾

التفسير: يقول عامة المفسرين أن المراد من قوله تعالى ﴿وإنْ منكم إلا واردُها كان على ربك حتمًا مَقضيًّا﴾ أن كل إنسان سيدخل في الجحيم (تفسير مجاهد). ولكن هذا خطأ، ذلك لأن الحديث هنا يدور عن الكافرين لا عن المؤمنين، إذ ورد قبل ذلك ﴿ويقول الإنسان أإذا ما مِتُّ لسوف أُخرَج حيًّا﴾. فمتى ينكر المؤمنون البعث بعد الموت؟ كما سبق أن قال الله تعالى من قبل ﴿فوربِّك لنحشُرَنَّهم والشياطينَ ثم لنُحْضِرَنَّهم حول جهنم جِثيًّا * ثم لنَنـــزعنّ من كلِّ شيعة أيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتِيًّا﴾. فثبت أن الحديث هنا إنما يدور عن الكفار فقط الذين ينكرون البعث بعد الموت، أو الذين تراودهم الشبهات حول الحياة الآخرة. فهم المذكورون في قوله تعالى ﴿وإنْ منكم إلا ورادُها كان على ربك حتمًا مقضيًّا﴾. علمًا أن ﴿حتمًا مقضيًّا﴾ يعني وعدًا واجبًا مقضيًّا.

واعلم أن سيدنا المسيح الموعود عليه السلام قد قبِل المفهوم العام الوارد في التفاسير، وقال إن قوله تعالى ﴿وإنْ منكم﴾ يشمل الناس جميعًا، وأن كل إنسان يدخل جهنم. ولكنه عليه السلام قد صرح أيضًا أن جهنم نوعان: جهنم هذه الدنيا وجهنم الآخرة. إن الكافرين سيُلقَون في جهنم الآخرة، ولكن المؤمنين لن يدخلوها، بل إن ما يقاسونه في هذه الدنيا في سبيل الله تعالى من تعذيب وأذى سيقوم مقام جهنم الآخرة.

وهذا يعني أن حضرته عليه السلام لم يفسر قول الله هذا باعتباره مرتبطًا بالآيات السابقة، وإنما كآية منفصلة. ولا شك أن هذا المعنى صحيح أيضًا، إذ قد قال النبي

ﷺ نفسه إن المؤمنين يقاسون في الدنيا أكثر من الكفار، بل لقد قال ﷺ إن الإنسان كلما كان أكثر حظًّا من حب الله تعالى كان أكثر عرضة للأذى في الدنيا*.

وقد فُسرت هذه الآية في الحديث أيضًا، ويتضح من الأحاديث أن المعنى الذي بيّنتُه أنا، والمفهوم الذي ذكره سيدنا المسيح الموعود عليه السلام كلاهما صحيح. فقد ورد بصدد المعنى الذي بيّنتُه عن حفصة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: لن يدخل النار أحد من أصحابي شهد بدرًا وصلح الحديبية. فقالت حفصة: يا رسول الله، وأين قول الله تعالى ﴿وإنْ منكم إلا واردُها﴾؟ فقال البني ﷺ: مَه يا حفصة. فأين قول الله تعالى ﴿ثم ننجّي الذين اتّقَوا ونذَر الظالمين فيها جِثِيًّا﴾؟ (مسلم*، وتفسير جامع البيان للطبري)

وبالمناسبة، فقد ثبت بهذا الحديث أيضًا أن لفظ ﴿ثم﴾ الوارد هنا أيضًا لا يفيد الترتيب هنا، وإلا فلن يكون قول النبي ﷺ هنا نفيًا لقول حفصة بل يكون تأييدًا لـــه، إذ سيكون المعنى أننا أوّلاً نُدخل الجميعَ، بمن فيهم المقتون، في النار، ثم ننجّي منها المتقين من بينهم بينما نذر الظالمين فيها جثيًّا. في حين أن النبي ﷺ أراد رفض هذا المعنى. فثبت أن النبي ﷺ أيضًا لم ير أن لفظ ﴿ثم﴾ في قوله تعالى ﴿ثم ننجّي الذين اتّقَوا ونذَر الظالمين فيها جِثِيًّا﴾ يفيد الترتيب، وإنما اعتبره استئنافيًّا.. بمعنى أن هذه الجملة جملة جديدة، والمعنى أننا سنلقي المجرمين في الجحيم، أما المؤمنون فندخلهم في الجنة من دون أن ندخلهم في الجحيم.

---

* ورد في الحديث: "الدنيا سجن المؤمن وجنةُ الكافر" (الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكاف) *(المترجم)*

* نص الحديث هو: "عن جابر ابن عبد الله يقول أخبرتني أمُّ مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها. قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها. فقالت حفصة ﴿وإنْ منكم إلا واردُها﴾. فقال النبي ﷺ قد قال الله عز وجل ﴿ثم ننجّي الذين اتّقَوا ونذَر الظالمين فيها جِثِيًّا﴾(مسلم: كتاب فضائل الصحابة، رقم الحديث ٤٥٥٢). *(المترجم)*

وقال الزجّاج: هناك آية أخرى في القرآن تدعم هذا المعنى وهي قول الله تعالى ﴿إن الذين سبقتْ لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعَدون﴾(الأنبياء: ١٠٢). لقد تبين من ذلك أن هناك فئة من الناس لن تقترب من الجحيم بَلْهَ أن تدخل فيها. فالزجّاج أيضًا يرى أن قوله تعالى ﴿وإنْ منكم إلا واردُها﴾ يخص الكفار، وأن قوله تعالى ﴿ثم ننجّي الذين اتّقَوا ونذَر الظالمين فيها جثِيًّا﴾ كلام جديد منفصل، ومعناه أننا سندخل المؤمنين في الجنة من دون أن ندخلهم في النار. وهذا ما يراه مجاهد أيضًا (القرطبي).

أما الحديث الشريف الذي يدعم المفهوم الذي قد بيّنه سيدنا المسيح الموعود عليه السلام فهو أن النبي ﷺ سُئل ذات مرة عن الحمى، فقال ﷺ إن الله تعالى يقول: "هي ناري أسلّطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظَّه من النار يوم القيامة" (ابن ماجة: الطب، رقم الحديث ٣٤٦١، والقرطبي).

كذلك قال النبي ﷺ: "الحمى حظُّ المؤمن من النار يومَ القيامة" (كنز العمال: الصبر على الحمى، رقم الحديث ٦٧٤٦، والقرطبي).

أي أن المؤمن لن يُلقَى في النار في الآخرة، لأن ما يصيبه في الدنيا من الأمراض كالحمى وما إلى ذلك يُعتبر حظَّه من تلك النار.

وقد ذكر القرطبي هاتين الروايتين نقلاً عن تهذيب التهذيب والطبري.

والواقع أن المفهومَ الذي ذكرتُه لقوله تعالى ﴿وإنْ منكم إلا واردها﴾ كان الخليفة الأول رضي الله عنه للمسيح الموعود عليه السلام هو الذي يذكره (انظر حقائق الفرقان)، وهو ثابت من الحديث الشريف أيضًا كما أثبتُّ. وهذا ما رآه ابن عباس رضي الله عنه أيضًا حيث قال "هذا خطابٌ للكفار". ورُوي عنه أنه كان يقرأ: "إنْ منهم إلا واردها".. أي إنْ مِن أحد من الكافرين المذكورين من قبل إلا واردُ جهنم. وقد أقرَّ هذه القراءة عكرمة وجماعةٌ من التابعين (القرطبي). ويقول القرطبي أن اعتبار ﴿منكم﴾ بمعنى "منهم" جائز كما قال تعالى ﴿وسقاهم ربُّهم شرابًا طهورًا﴾، ثم قال بعد ذلك فورًا ﴿إنّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيُكم مشكورًا﴾(الإنسان: ٢٢-٢٣). فاستخدم الله أولاً ضمير الغائب فقال ﴿وسقاهم ربهم﴾، ثم استخدم ضمير

المخاطب فقال ﴿إنّ هذا كان لكم جزاءً وكان سعيُكم مشكورًا﴾. وبالمثل فإن قوله تعالى ﴿منكم﴾ يعني هنا "منهم" أي من الكفار المذكورين من قبل.

إذًا، فكل من المفهومين اللذين ذكرتهما أعلاه ثابت من الحديث الشريف ومن أقوال الصحابة رضوان الله عليهم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

نديًّا: النديّ: النادي (الأقرب).

التفسير: إن البعض عندنا يقوم بترجمة حرفية لقوله تعالى ﴿وإذا تتلى عليهم آياتُنا بيّنات﴾ كما فعَل الشاه رفيع الدين في ترجمته الأردية للقرآن الكريم. مع أن جملة "تلا عليه كذا" يعني قرأه قراءةً يسمعها صاحبُه.

إن من خصائص اللغة العربية والقرآن الكريم أنهما يستخدمان للدلالة على موضوع ما ألفاظًا لا تشير إلى الموضوع فحسب، بل تحوي الدلالة الكاملة عليه أيضًا. وعلى سبيل المثال، نستخدم في لغتنا الأردية لفظ المعجزة أو الخوارق وما شابههما بمعنى الآيات الإلهية، مع أن أي لفظ منها لا يبين المدلول الحقيقي والغاية الحقيقة لآيات الله تعالى. لا شك أن "المعجزة" كلمة عربية، ولكن القرآن الكريم لم يستخدمها، كما لم ترد في الحديث الشريف؛ وإنما اخترعها الناس من عند أنفسهم؛ وهي لا تؤدي المعنى الذي اختُرعت من أجله. لقد استعمل القرآن الكريم لبيان هذا المفهوم كلمة الآية، ومن معانيها العلامة أيضًا، ولكن لفظ العلامة أيضًا لا يؤدي المفهوم الذي تنطوي عليه كلمة الآية. إن مفهوم الآية هو دلالة شيء على شيء آخر. وقد بين الله تعالى باستخدام لفظ "الآية" أن ما يُظهر الله تعالى من آيات لا يكون بدون هدف، بل يكون وراءها مقصد وغاية. أما لفظ "المعجزة" فليس إلا تعبيرًا عن القدرة والقوة، كأن يضرب الإنسان شخصًا بالعصا فيفرّ من

أمامه، فيدل ذلك على قوة صاحب العصا. بينما تدل كلمة "الآية" على أن وراء ذلك الفعل هدفًا معينًا، وأنه يُعرَض على الناس كدليل يفهمون به ذلك الهدف المنشود.

نعرف بفحص جميع الأديان الموجودة في العالم أن كل واحد منها يدعو الناس إلى الإيمان بأمور غير مرئية أيضًا. وبما أنها أمور غيبية خفية فيقدم الدين براهين أخرى تدل على وجودها. وبعض هذه الدلائل عقلية بحتة، وبعضها دالة على قدرة الله وعلمه بالغيب، فيسهل بها على الناس إدراك تلك الأمور الغيبية. خذوا مثلا قضية نبوة الأنبياء عليهم السلام، فلم ير أحد في الدنيا قط ملاكًا نـــزل من السماء، وتكلم مع أحد من الأنبياء. فبما أنها ظاهرة خفية على الناس لذا يدعمها الله تعالى بآيات تكون علامة على أن ما يقوله النبي لا يقوله من عند نفسه، وإنما من عند الله تعالى. وبالمثل لم ير أحدٌ من البشر اللهَ تعالى قط، لذا فإن إثبات وجوده تعالى يتطلب تقديم الأدلة التي تقرب لنا وجوده بحيث يتراءى للعيان، ويصدّق العقل بأنه تعالى موجود فعلاً، وبأنه متصف بصفات شتى.

إن مثل هذه البراهين تسمى في لغة القرآن الكريم آيات لأنها تَظهر لتُؤكد أن الله عالم الغيب أو أنه قادر مطلق أو أنه حيّ قيّوم. فمثلاً يدلي النبي بخبر غيبي، ويعلن أن الله تعالى هو الذي أخبره بذلك. ومعلوم للجميع أن الإنسان ليس بقادر على معرفة الغيب، إذ لو كان عالمًا بالغيب لما عزا خبر الغيب إلى الله تعالى، بل عزاه إلى نفسه هو، فإننا نشاهد يوميًّا أن الناس يعزون إلى أنفسهم محاسن الآخرين. فمثلاً يقرأ البعض كتابًا لشخص آخر، ثم ينشرون مضامين الكتاب في مقال باسمهم. يعزون إلى أنفسهم جهود المصنف الحقيقي الجالس في قطر آخر من العالم. بل الحق أن الناس يسعون دائمًا أن يعزوا إلى أنفسهم كل عمل حسن. فذات مرة ذهب فريق مدرستنا الأحمدية إلى مدينة أمرتسر لمباراة مع الكلية السيخية التي تدعى "الخالصة"، ولم أكن إذاك أدرس في المدرسة ولكني كنت على صلة معها حيث كنت أكملت دراستي فيها مؤخرًا، فذهبت أنا الآخر مع الفريق. ولما وصلنا إلى أمرتسر بقي اللاعبون هناك، وذهبت أنا إلى لاهور. وحين رجعت استقبلني على

محطة القطار بعض ممن كانوا أشد صلة بي. فقال لي أحدهم إن مباراتنا كانت مثيرة، وقد أثنى علينا الجماهير كثيرًا، وأننا قد حققنا فوزًا رائعًا. ففرحت بالخبر بطبيعة الحال وقلت الحمد لله. ثم قال لي هذا إن الناس قد أشادوا بكل واحد منا، إلا أنهم قد أُعجبوا بأداء قائد فريقنا إعجابًا كبيرًا. ففرحت بذلك أكثر لأن قائد الفريق كان نسيبًا لأخي مرزا بشير أحمد، وكان لاعبًا رائعًا بالفعل. ولكن هذا الشخص قال فيما بعد: لقد حدث شيء غريب وهو أن الجميع كانوا يظنون أنني أنا قائد الفريق. مما يعني أنه نسب إلى نفسه كل الثناء الذي كان من حق القائد.

إذًا فالقاعدة أن الناس إذا رأوا في غيرهم ما هو حسن سعوا أن يعزوه إلى أنفسهم. فيسرقون أبيات الآخرين وينشرونها باسمهم. ولكن متى يوجد في الدنيا غبي هو من فحول الشعراء، وقد نال من كبار الشعراء والأدباء الثناء الكثير، ومع ذلك يقول عن قصائده إنها ليست من قريحتي، بل هي من إبداع فلان؟ اللهم إلا بعض الأغبياء ذوي المستوى الوضيع الذين يحاولون قرض الشعر ثم يعزونه إلى فحول الشعراء بغية المدح والثناء. فيقولون مثلاً هذا البيت لأنوري أو خاقاني أو سعدي أو الحافظ الشيرازي♦. مثلما يلفّق بعض الكذابين روايات من عند أنفسهم ثم يقولون هذا من حديث رسول الله ﷺ. ولكنك لن تجد شخصًا يملك ناصية الكلام ثم يعزو كلامه إلى غيره، أو شاعرًا بارعًا ينسب شعره الرائع إلى غيره، إذ لا أحد في الدنيا يستعد أن يعزو إلى الآخرين ما يزيده شرفًا وصيتًا.

والآن تدبَّرْ أمر النبوة آخذًا هذه القاعدة في الحسبان. فإن النبي حين يُبعث إلى الدنيا ويدلي بأخبار الغيب أمام أهلها، فلا يقول إني أنا الذي أقول ذلك، بل يعلن أن الله تعالى هو الذي أخبره بهذا. فلو كان النبي بنفسه عالمًا بالغيب فما الداعي أن يعزو تلك الأخبار الغيبية إلى الله تعالى. إنه يعزوها إلى الله تعالى لأنه يكون على يقين تام بأن الله تعالى هو الذي قد أطْلَعَه على ذلك الغيب، وإلا فما هو الداعي لأن يعزو ميزته هذه إلى الله تعالى؟

♦ هذه أسماء فحول الشعراء في الفارسية. *(المترجم)*

ثم إننا نشاهد أن تلك الأخبار الغيبية تتحقق أيضًا، وهذا يكشف للدنيا أنه صادق في دعوى النبوة، وأنه على صلة مع الله تعالى. كما يدل هذا أن هناك عالِمًا بالغيب ﷻ.

وبالمثل فإن الآيات الإلهية تبرهن على أن الله حي قيوم. فمثلا يكون هناك مريض قد أشرف على الموت، وصار بطيء النبض متقطع الأنفاس، فيمسّه عبد من عباد الله تعالى ويدعو لـــه بالشفاء، فتظهر فيه آثار الحياة من جديد، فتعود إليه أنفاسه وتستقيم حواسه، ويستعيد قوته وطاقته؛ وكل من يرى هذا المشهد يوقن بأن الله تعالى هو الحي القيوم. ذلك لأن عبد الله هذا ما كان قادرًا على أن يشفي هذا المريض وينقذه من الموت، ولكن ببركة دعائه وابتهاله أمام الله تعالى عادت الحياة ثانية إلى ذلك الجسد الشبيه بالميت، مما شكل برهانًا أكيدًا على أن ربنا حي قيوم.

أو يكون هناك مثلاً شخص لم يقدر على الإنجاب رغم زواجه من أعوام كثيرة. فيدعو لـــه أحد الأنبياء أو الصلحاء الأخيار، فيُرزق الأولاد. فتشكّل هذه الآية برهانًا على أن ربنا خالق.

فثبت من ذلك أن الآيات هي العلامات التي تظهر للدلالة على هدف أسمى، فتُثبت وجود البارئ تعالى مثلاً، أو تبرهن على صدق الأنبياء. أي أنها تظهر من أجل غاية عظمى، ولا تظهر في غير محلها لغوًا وعبثًا، مثلما هو شائع عندنا أن الحمّالين في مكة يخرجون منها بحميرهم ويحملّونها أحجارًا، وعندما يدخلون مكة ثانية تتحول الأحجار بطيخًا. فما العلاقة بين الحجر والبطيخ، وما الداعي لمثل هذه الشعوذة؟ ولكنك سترى بالتأكيد آية وأية آية فيما أعلن الله تعالى به بشأن الكعبة المشرفة. لقد أعلن الله تعالى أنها ستظل محفوظة ممن يعتدي عليها. فجاء أبرهة لهدمها، ولكنه لقي الهزيمة النكراء رغم كل ما كان يملكه من قوة وطاقة. كما ستجد آية كبرى فيما حصل مع رسول الله ﷺ، حيث أخبر حين كان وحيدًا في مكة أنه سيتغلب في آخر المطاف؛ وبرغم الجهود المستميتة من قبل أهل مكة أصبح النبي ﷺ غالبًا، وصار أعداؤه مغلوبين. هذه هي الآيات التي تبرهن على أن الله

تعالى موجود، وأن محمدًا ﷺ رسوله الحق، وأن هناك ربًّا قويًّا يسانده ويؤيده بنصره.

ثم من الآيات ما يكون برهانًا ولكنه لا يبين هدفه وغرضه، ولكن الله تعالى يبين هنا أن آياته بيّنات حيث قال ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيّناتٍ﴾.. أي أنه لا يكون وراءها هدف وغاية فحسب، بل تدل على غايتها بوضوح وجلاء، وتبين الغرض من ظهورها. بمعنى أن الآية لا تكون عملية عبث، وإنما تبرهن على وجود الله تعالى وصدق رسله؛ وليس هذا فحسب، بل تظهر في محلها تمامًا وفق مقتضى الظروف والأحوال. فالآية البينة هي:

أولاً: ما يظهَر للدلالة على شيء أسمى ولتقريبه من الأفهام والعقول.

ثانيًا: ما لا يكون عملاً عابثًا، بل تكون وراءه غاية نافعة ويكون بحسب مقتضى الحال.

ذهب سيدنا المسيح الموعود عليه السلام ذات مرة إلى مدينة "لُدْهيانه". وكان الصوفي الشهير أحمد جان، الذي كان من أولياء الله العظام، والذي هو حمو الخليفة الأول عليه السلام، والذي كان قد قرأ الكتاب الشهير للمسيح الموعود "براهين أحمدية"، ففرح بخبر مجيئه عليه السلام في مدينته فرحًا كبيرًا، وأمر أحد مريديه الذي كان من أمراء كابول أن يدعو المسيحَ الموعود عليه السلام إلى مأدبة طعام. فحضر عليه السلام المأدبة في بيت الأمير، وتناول الطعام. ولما أراد الانصراف صحبه الصوفيُّ أحمد جان يشيعه إلى مكان إقامته عليه السلام. وكان الصوفي نفسه من مريدي أحد الصوفية الشهيرين بقرية "رتّر چهتّر" الواقعة في منطقة غورداسبور. وفي الطريق سأله المسيحُ الموعود عليه السلام: سمعتُ أنك قد خدمتَ هذا الصوفي من "رتّر چهتّر" اثني عشر عامًا، هلا أخبرتني ماذا نفعتك صحبتُه؟ فأجاب: لقد كان هذا الرجل من كبار أولياء الله تعالى، وقد انتفعت من صحبته نفعًا عظيمًا. ثم أشار إلى شخص قادم من ورائهما وقال: وقد اكتسبتُ ببركة هذا الولي الكبير طاقة خارقة بحيث إني لو نظرتُ إلى هذا الشخص الماشي وراءنا لسقط على الأرض من فوره مضطربًا مرتجفًا. فتوقف المسيح الموعود عليه السلام على قوله هذا، وسكَت مليًّا، ثم قال وهو يحكّ بعصاه الأرض: فما الفائدة

فيه لك ولذلك الشخص؟ ولما كان الصوفي أحمد جان من أهل الله المقربين أدرك من فوره ما يقصده المسيح الموعود عليه السلام، وقال: ها إني أعاهدك اليوم أني لن أعود لمثل هذه الفعلة أبدًا. لقد فهمت أنه عمل غير صالح وشيء لغو، لا علاقة لـــه بالدين أو الروحانية (تاريخ الأحمدية مجلد ٢ ص ٤٩-٥٣).

فترى أن العملية التي كان يقوم بها هذا الصوفي كان أمرًا خارقًا يدل على قوته الخارقة حيث كان يجعل الشخصَ المارّ بالشارع يخر على الأرض، ولكن ما علاقة ذلك بالروحانية؟ فمثله كمثل شخص يلكز شخصًا فيلقيه على الأرض. وإن الشخص الماهر بالتنويم المغناطيسي حين يركّز نظره على غيره ويلقيه على الأرض يكون هذا دليلاً على أنه يملك قوة خارقة، ولكن ليس ذلك دليلاً على أنه على صلة مع الله تعالى. فكانت هذه العملية آية، ولكن لم تكن آية بينة، لأن الآية البينة هي تلك التي تدل على الغاية التي وراءها.

وقد بين الله تعالى في الآية التي نحن بصدد تفسيرها أن المعجزات الإلهية لا تكون آيات فقط، بل تكون آيات بيّنات أيضًا حيث تدل على غرضها وغايتها، والفائدة التي يمكن أن تجنيها الدنيا منها. فمثلاً قد أخبر سيدنا المسيح الموعود عليه السلام بناء على إعلام رباني عن تفشي الطاعون عن قريب في منطقة البنجاب (أيام الصلح ص ٣٦١)، فتفشّي الطاعون فعلاً. فلم تكن هذه آية فحسب، بل كانت آية بينة أيضًا. ذلك لأنه عليه السلام قد بيّن سلفًا أن الناس قد أخذوا ينحرفون عن شريعة الله تعالى ويقتربون من الجحيم، لذا فقد قرر الله عذابهم بالطاعون حتى يدركوا أنهم قد أخطئوا فيعودوا إلى الله تعالى ثانية. ولو أنه عليه السلام اكتفى بإعلانه أن الطاعون سيتفشى في هذه المنطقة وأنه سيحصد أعدائي حصادًا، وسيُهلك عددًا من أتباعي أيضًا، لكانت هذه آية، ولكن لظلت آية غير بينة.

قصارى القول إن الله تعالى قد كشف بهاتين الكلمتين عن حقيقة المعجزات الإلهية عند الإسلام، وبيّن سبحانه وتعالى أن الآيات الإلهية إنما تظهر لهدف سام وغاية عظمى، وأنها تكشف عن هذه الغاية السامية، كما أنها تقع بحسب مقتضى الحال.

فالله تعالى يقول ﴿وإذا تتلى عليهم آياتُنا بيّناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًّا﴾.. أي عند تلاوة هذه الآيات البينات يسخر الكافرون من المؤمنين وكأنهم يقولون لهم: "عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة".. أي ليس عندكم إلا الوعد بعشرة، وأما نحن فعندنا الواحد نقدًا. تقولون لنا اتّبعونا تنالوا الجنة، والصلات الجزيلة، وتحظوا برضوان الله تعالى وزلفاه؛ ونحن نقول لكم في الجواب: دَعُونا من الأدلة الأخرى، وقارِنوا بين حالتكم وحالنا. فأحذيتكم مرقعة، وأسمالكم بالية، وطعامكم شحيح، وبيوتكم خاوية؛ في حين أن كل واحد منا يملك عشرات العبيد والخدم، وبيوتًا مليئة بطائل الأموال وغالي الأثاث. ونحن أكثر عزًّا وسيادة ومنصبًا وعددًا. فما قيمة ما تعدوننا به عن الغد إزاء ذلك؟ هلا رأيتم أي الفريقين منا هو أحسن دارًا وأكثر أثاثًا؟ هل يحضر النبلاء مجالسكم أم مجالسنا؟ هل يأتيكم الناس طلبًا للعون أم إيانا؟ فإذا كنا نحن أكثر منكم مالاً وثراءً وسلطة وعددًا، وإذا كنا نحن أكثر نفوذا بين النبلاء والشرفاء، وإذا كنا نحن أصحاب المناصب الحساسة، وإذا كنا نحن الذين نملك العدة والعتاد؛ فأي الفريقين منا يُعتبر الأفضل؟

والحق أن هذا الدليل ليكفي لإفحام الخصم وتبكيته، إذا لم يتم الرد عليه.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

أثاثًا: الأثاث: متاع البيت؛ وقيل: هو ما يُتّخذ للاستعمال والمتاع؛ وقيل: المال كله (الأقرب).

رِئْيًا: الرِّئْيُ: المنظر (الأقرب).

التفسير: يرد الله تعالى هنا على حجتهم ويقول إن حجتهم مقبولة من دون شك إذا كانت الثروة التي بحوزتهم تشكل ضمانًا بأن حالهم غير قابل للزوال. نحن

نسلّم بأنهم يملكون الأموال والثروة التي لا يملكها المؤمنون. ولكن هلا فكّروا فيما جرى لمن قبلهم ﴿وكم أهلكنا قبلهم مِن قرن هم أحسنُ أثاثًا ورئيًا﴾.

والقرن هو مئة عام، كما يطلق على مدة قريبة من ذلك مثل الثمانين والتسعين عامًا. والقرن أهل زمان واحد؛ وأهل جيل واحد؛ والوقت من الزمان؛ وكل أمة هلكتْ فلم يبق منها أحد (الأقرب).

فالله تعالى ينبه الكفار بذلك أنهم لو فكروا لعلموا أنه قد خلا قبلهم قرون من الناس الذين أهلكناهم كلهم حتى لم يبق منهم أحد، وذلك بالرغم من أنهم كانوا أحسن من هؤلاء متاعًا وكانت نواديهم أغلى أثاثًا من نوادي هؤلاء.. أي كانوا أشد منهم قوةً وشوكة، وأكثر منهم رعبًا وهيبة، ومع ذلك دمرناهم. فما دامت الأمم التي كانت أحسن من هؤلاء مالاً وقوة وشوكة قد دُمرتْ فلا يحق لهم أن يدّعوا بأنهم لن يهلكوا أبدًا. لسنا هنا بصدد فيما إذا كان الله يريد أن يهلكهم أم لا، وإنما نؤكد بهذا على خطأ زعمهم أنهم كيف يمكن أن يهلكوا مع أنهم أكثر أموالاً وقوة من المؤمنين.

ولما كان الحديث هنا يدور عن المسيحية فهناك سؤال يطرح نفسه هنا: مَن هؤلاء الذين كانوا أكثر مالاً وقوةً وعتادًا من هذه الشعوب المسيحية؟ فإنها تملك اليوم من الأموال والأثاث والقوة والعتاد ما لم يتيسر لأي حكومة من قبل؟

فليكن مفهومًا أن المال والقوة أمر نسبي في الحقيقة. فمثلاً هناك شخصان يملك أحدهما ألف جنيه، ويملك الآخر مئتي جنيه. وهناك شخصان آخران يملك أحدهما عشرة ملايين جنيه، بينما يملك خصمه أيضًا عشرة ملايين جنيه إلا ألف جنيه. فبالرغم أن الذي عنده عشرة ملايين جنيه هو أكثر مالاً بكثير من الذي عنده ألف جنيه فقط، ولكنه في الواقع أضعف منه قوة بالنظر إلى ما يملكه خصمه. ذلك لأن الذي يملك ألف جنيه فقط هو أقوى من عدوه خمسة أضعاف، أما هذا الذي بحوزته عشرة ملايين فإن منافسه لا ينقصه إلا ألف جنيه، فثبت أن ضعفه حيال خصمه قليل جدًا نسبيًّا. فثبت بذلك أن موازنة القوة أمر نسبي، حيث لا يُنظر فيه

إلى ما يملكه الطرف الواحد من مال وقوة، بل يؤخذ في الحسبان أيضًا ما يملكه الطرف المنافس، ثم يتم الحكم بحسب النسبة الحاصلة بينهما.

وعندما نطالع التاريخ من هذا المنظور نجد أنه لم يوجد في عصر فرعون ملكٌ آخر يمكن أن يقف ندًّا لـــه قوة ومنعة. ولم يوجد في عهد الإسكندر في الدنيا كلها مثيل لـــه في القوة والشوكة. ولم توجد في عهد جنكيز خان في الدنيا قوة تقف في وجهه. مما لا شك فيه أن أمريكا اليوم هي أكثر من جنكيز خان والإسكندر ونابليون وغيره مالاً وعتادًا ونظامًا عسكريًّا بآلاف المرات، ولكن القوى المعادية لأمريكا هي الأخرى أكثر مالاً وقوة من الإسكندر وجنكيز خان ونابليون بآلاف المرات. لقد هبّ الإسكندر من اليونان وقطع مسافة أربعة آلاف ميل ليغزو الهند، ولم تقدر أية دولة على الوقوف في وجهه. بينما نجد أن أمريكا لما حاولت غزو كوريا لم تجد بدًّا من الانسحاب منها وبصعوبة بالغة. وهذا يعني أن الصين وروسيا تملكان اليوم قوة تماثل قوة الأمريكان. فثبت أن أمريكا اليوم أضعف نسبيًّا من الإسكندر وجنكيز خان رغم كل ما تملكه من عدة وعتاد، ذلك لأن أعداء جنكيز خان أو الإسكندر كانوا أضعف بكثير من أعداء أمريكا.

أو انظروا مثلاً إلى ما كان يتمتع به ملوك ميديا وفارس أو الملك البابلي نبوخذنصر من قوة ومنعة، حيث لم يوجد حوله بمسافة آلاف الأميال من يقدر على التصدي لهم. وحيثما توجهوا بجنودهم استسلمت لـــهم الشعوب دونما مقاومة، وإذا حاربهم أحد لقي هزيمة نكراء. ولكن أمريكا لا تستطيع أن تتغلب على العالم كله، بل كلما تقدمت قليلاً في جبهة وقفت الصين في وجهها، وإذا تقدمت في جبهة أخرى تصدت لها روسيا. فتجد ثمة توازنًا للقوى بحيث يبدو أن الواحد ند للآخر تمامًا، أو أن الفرق بينهما ليس بكبير. أما الفرق بين هؤلاء الملوك القدامى وخصومهم فكان كبيرًا جدًّا. إذًا فلا شك أن أمريكا هي أكثر قوة ومنعة من هؤلاء الملوك القدامى فيما يبدو، ولكنها أضعف منهم نسبيًّا في الحقيقة.

ومن أجل ذلك يقول الله تعالى لهؤلاء القوم إننا ما دمنا قد أهلكنا في الماضي دولاً كانت أكثر منكم مالاً وقوة وعتادًا، فكيف تظنون أنكم لن تهلكوا أبدًا.